

الفصل الثاني: --

في النصف الثاني لذلك القرن (12) وردت للحريق أنباء غير واضحة عن ظهور شخص متطوع لإرشاد الناس إلى صراط الله المستقيم، والبعد عن البدع التي دخلت على المسلمين جراء استيلاء العثمانيين على البلاد، مما أدى لتشويه حقيقة الإسلام الوارد في الكتاب والسنة، وقد اتبعه بعض من أهل شمال العارض في الدرعية والعيينة والوشم والمحمل، كما عارضه عدد كبير من سكان تلك النواحي. وقد استبشر آل خثلان خيراً في ذلك، فطيلة القرون الماضية كانوا وأسلافهم من هوازن ثم صعصعة ثم جعدة، ينافحون لرفعة كلمة الله وصد أهل البدع من باطنية وخوارج وقرامطة وغيرهم، لا يرجون من ذلك علواً ولا مالاً ولا فساداً. وبينما هم يتشاورون حول سبل مساندة تلك الحركة، ورد إليهم بعض حلفائهم من تميم ومعهم رجل من حريملا معه كتاب من أخ ذلك المطوع، أوضح فيه أن الرجل ذو عقيدة خبيثة، ولم يجرؤ على المجاهرة بها إلا بعد وفاة أبوهم، الذي كان دائم النصح له بالتزام نهج الصالحين في القرون الأولى، ونبذ أقوال الباطنية وتكفير أهل القبلة مما ظهر في القرن الثامن، كما سبق له أن سب أهله وادعى أن بعضهم يتقاضون الرشوة على القضاء، وذلك أثناء نوبات العته التي تصيبه بين حين وآخر تجعله يهذي. لم يستسغ الحضور تلك الأقاويل وأفادوا القادمين أن عليهم الاستراحة، وقد أعدوا لهم العشاء بعد العصر حيث سيحضر عدد من آل خثلان ذوي الدراية ونفر من بقية سكان الحريق. قبل المغرب سألوا الوافدين عن اضطراب بعض حديثهم، لكنهم طلبوا قبل ذلك إخبارهم عن هوية المطوع، ثم بيان مسوغ حضورهم للحوطة والحريق. أفادوهم أن الرجل اسمه محمد بن عبد الوهاب من آل مشرف من تميم، وهو من بيت علم ومناقب جليلة، وأبوه وجده عملوا في القضاء والفتوى في العيينة، وقد ذهب الرجل في مقتبل عمره للحج ثم لطلب العلم خارج نجد، حيث تداخل مع بعض الخوارج والباطنية ذوي المعتقدات الفاسدة والتكفير، العاملين على صد الناس عن الدين وجعلهم يكرهون الإسلام. وعندما واجهته مصاعب في تلك الديار قرر العودة لحريملاء، وبداء ينكر على أهله وأقاربهم تصرفاتهم وأنهم مبتدعة وكفرة يستحقون القتل. ولما بلغ به الفساد التطاول على أبيه، ضربه الناس وحبسوه حتى ارتدع وكف أذاه، ولما مات أبوه وتولى القضاء والتحكيم أخوه الأصغر، عاد إلى نزقه وسبابه للناس وتكفيرهم. ثم فر من البلدة إلى مسقط رأسه (العيينة) حيث بدل نهجه والتزم الرفق والموعظة الحسنة، وكان حلو اللسان شديد الذكاء فأعجب به رئيس البلدة عثمان بن معمر، ووفر له الرعاية والدعم لنصح الناس وتوجيههم وأكرمه وصاهره. كما سار معه عدد من الفقهاء وأيدوا قوله بوجوب التزام نص

الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة، والبعد عن البدع والإحداثيات في الدين التي ادخلها الترك وأعوانهم. لم يستمر كذلك سوى سنتين عاد بعدها لطريقته السابقة، وأخذ يسب ويكفر كل من لا يخضع لاجتهاداته، ثم استفحل أمره ويوجه أتباعه بسلب أموال الكفار وقتلهم، كما نبش قبور الصحابة في الجبيلة ومنع الزيارة المأمور بها شرعاً. عند ذاك اشتكى الأهالي للعريعر الذي أمر ابن معمر باتخاذ اللازم حياله، الذي لم يقبل أن يتركه للعمامة ليفتكوا به، فأوصله آمناً للدرعية عند بعض مريديه. حيث التقى هناك بأميرها محمد بن سعود المريدي، الذي وفر له الدعم المالي والحربي والرجال، لقاء التعهد بحسن السلوك والبعد عن العنف، لكنهم بعد فترة انحرفوا وأخذوا يقطعون الطرق، ويمتحنون العباد بأقوال متناقضة في الدين، وحول بعض التأويلات المختلف عليها، ثم يقتلونهم أو يكتفون بسرقتهم رغم مكافحة الأمير لهم. ثم أضافوا أنه يعارض السلف الصالح، ويرفض فتاوى أبو حنيفة وما ورد في صحيح مسلم وابن حجر عن البخاري، كما يدعي محاربة البدع ويبتدع هو ما يشاء. ويعتبر مناصريه هم المسلمون فقط ويجعلهم أصحاب النعيم وإن قتلوا وسرقوا ومن خالفوه هم أصحاب الجحيم، ويخلط آيات القرآن فيجعل ما ينطبق على الأنبياء من صفاته ومريديه، وما نزل في عبدة الأصنام يجعله فيمن لا يوافق اجتهاداته الباطلة. وهو يبغض آل بيت النبي ويناصبهم العدا، كما يدعي أنه يؤم الناس وهو في الثانية عشر لكنه لم يعرف معنى لا إله إلا الله إلا عند بلوغه الأربعين؟ وهذا كتاب من أقرب الناس إليه (قاضي حريملاء) أخوه سليمان بن عبد الوهاب، يحذر الجميع منه ويحثهم لعدم الانسياق خلف ترهاته المخالفة للسلف الصالح. ونحن من بنو عمه ونعلم عنه الكثير مما يوجب علينا النصيحة لكم، وهذا ما دفعنا للقدوم نحو جماعتنا (تميم) في الحوطة، حيث علمنا أنه بداء يرسل بلدات نجد للانضمام إلى نهجه المعوج.

كرر آل خثلان الترحيب بهم، وقالوا إن بعض كبارهم كانوا عند سبعان الدرعية، نحو عام 1145 هـ في بداية تولي الأمير محمد رئاسة الوادي، ثم التقوا به بعدها بقرابة خمس عشرة سنة، لما أكمل توحيد القرى وأسس امارته هناك. وعرفوا تفاصيل الأمر ولديهم ملاحظتان، وقبل سردها سارع أحد الحراقى، للقول بأنه وجماعته لا يباليون قطعياً بهذه الأمور، وأنهم أكبر من الدرعية ومن فيها سواء الوهبة أو المردة! أكمل ابن خثلان قوله إن المسألة الأولى هي عن موافقة كبار الفقهاء له أولاً ثم ما قالوه عن انقلابهم ضده؟ والثانية هي مسارعة أقاربه لمخاصمته وعدم تركهم ذلك للأبعاد ليكفوهم مؤونة القطيعة؟ لم يمكن إنهاء المباحثة ودياً، بل باستئذان القادمون للمغادرة ودعاء المقيمين لهم بسلامة العودة لأهلهم، بعد أن نوهوا عن طباع الغدر حيث قام الخوارج بقتل ابن معمر في مصلاه بعد تكفيره، رغم جهوده المعروفة للدفاع عن الدين

القوميم. بعد ذلك بفترة غير طويلة جرت حادثة مؤلمة كدرت على أهل الحريق، فقد خرجت جماعة منهم مع نسائهم وأطفالهم وخدمهم، ينتجعون ببهائمهم شمالاً نحو مراعي جيدة حتى اقتربوا من ضرماء جنوبي الوشم، حين فوجئوا بفزع من الرعاة يستنجد من هجوم "الحنشل" واستياقهم بعض الأنعام، فهب الرجال لنجدة حلالهم من اللصوص. لكنهم لاحظوا دخولهم البلدة ثم أغلقت "الدرائيز" ولم يكن من عادة أي قرية في نجد أن تؤوي المجرمين علانية، كما أن هناك مفاهيم بين الأهالي حول تبادل حقوق الرعي. عندما ذهبوا للاستفسار من العقلاء لم يجبههم سوى صغار السن من أعلى الحائط، قائلين إن أهل الحريق كفار ولا يعرفون التوحيد، ودوابهم غدت غنيمة للمسلمين في غزوة مباركة! استشاط الغضب بالبعض وعلت الدهشة وجوه الآخرين لمثل هذا المنكر. كانت تردهم خلال الثلاث سنوات الماضية، أنباء عن خروج عصب من غلمان الدرعية نحو القرى المجاورة للرياض، مثل معكال ودخنة وصياح ومقرن والحبونية، ويسطون في آخر الليل على الحلال ويستاقونه نحو من أرسلوهم، وإذا فطن فيهم أحد قد تحدث مشاجرة تؤدي لجراح مع قلة الوفيات، وعادة ما تكون تلك العصب من نفر يراوحون بين عشرة إلى ثلاثين شخص. لذا فقد أوصى عقلاء الختالين من معهم بالعودة للمخيم للتداول حول الأمر، وسبل تلافي إساءة العلاقة مع الإخوة أهل ضرمى "الشقيقة" لكن للأسف بادر بعض المتهورين لتصعيد الحديث بدون تفكير. وأصروا على وجوب تأديب الحنشل، ودخول البلدة عنوة لاستعادة إبلهم وأغنامهم، بخاصة ان رؤساء الدرعية وضرمى لا يؤيدون الغلمان الأشرار. باشرروا في ترتيب الأخشاب والحبال لصنع سلالم لارتقاء الجدار، فعدوا ضحايا التصرف الأخرق حيث أصابتهم رمايات بنادق "أبو فتيلة" الرديئة في تلك الليلة المقمرة، مما نجم عنه مقتل خمسة منهم اثنان من الهزازنة وثلاثة من القحاطين، وأما الختالين فرفضوا المشاركة في ذلك، إلا أن إحدى نسائهم أخذت تصيح وتندب ولدها الذي قرر أن يتسلق مع أبيه فلقي مصرعه، أما أبوه فسقط من أعلى السور وتعور. كانت تلك الواقعة الأليمة بداية لحقبة مظلمة امتدت ربع قرن، قام فيها أهل العارض بترك كتاب الله وسنة نبيه، وغدا بعضهم يكفر بعض ويسفكون دمائهم ويسرقون أموالهم. فر الكثير عائدون للحريق أما السبعان فبعد أداء صلاة الفجر توجهوا نحو البلدة، فوجدوا كرام أهل ضرماء قد سبقوهم لمداواة من بقي من المصابين، وطلبوا من القادمين قبول اعتذارهم ولم يوبخوا أحداً لتعديه على حمى بلدتهم، بل تمنوا عليهم العودة لمخيمهم ووعدوا بإحضار طعام الغداة عند الضحى وبحث الأمر. كان مع القادمين رجل من سبعان البلدة وحادث سبعان الحريق عن الالتباس الذي جرى، وكيف أن بعض الفتيان ممن ذهبوا للقراءة في الدرعية، قد انتابتهن مشاعر الغلو وجرى ما هو مؤسف، كما أكد لهم أن أعيان ضرمى ومن بينهم السياري قد التزموا

بدفع تعويضات ورد ما هو ممكن من المسلوبات. ثم انفرد ببعض آل خثلان وأفادهم أنه يدعوهم للدخول في حركة الإصلاح الديني النزيهة، التي يقوم بها كل من محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب في الدرعية، كان بعضهم يعرف الشنيفي من سنين، وصارحوه بأن ما بلغهم عن تلك الحركة وما رأوه البارحة لا يشجع على تأييدهما. لكنه ألح عليهم أن المواجهة مع الرجلين أفضل من التعرف عليهما من أقوال الوشاة، كما أن الجميع لا يؤيدون تصرفات السفهاء. كما بين أن آفة الإصلاح تركز في عنصرين، الأول هو كبار السن ممن استهوتهم المطامع المالية، والثاني هو صغار السن المحبطين محبو مظاهر العلو والنفاق. رفض آل خثلان في تلك اللحظة الحزينة دعوته، وبيّنوا بجلاء عدم رغبتهم تكفير أهل القبلة ممن يؤدون الأركان الخمسة ويجتنبون الموبقات السبع، بغرض الاستيلاء على حلال غيرهم، كما دعوا الشنيفي لزيارة الحريق فبادر للقبول. بعد شهر جاءهم الرجل مع رهط من جماعته، حيث هدأت الخواطر وطابت الجراح، وكان معهم نقود قدموها مساعدة لمن تضرروا من الحادثة، لكن "الإرش" لم يقبل. وبينما هم في المضيفة عرضوا على الحضور من الحراقى زيارة الدرعية سوياً، للمداولة مع قادتها حول مساهمتهم في دعم حركة الإصلاح الديني، ونبذ محبي الفساد، لكن أحد المرتجين سارع لرفض ذلك متباهياً أن الحريق كانت وما زالت أكبر من الدرعية والعيينة. وقد جانبه الصواب فقد كانت الحريق آنذاك عاجزة عن تبوء مكانة نعم السابقة، التي تشرف على سبعان العارض من الأفلاج حتى الصمان، أما العيينة في زمن خرفاش بن طوق المعمر فقد قادت وسط العارض (حجر) من منفوحة حتى جنوب سدير، وبتفويض من رجال الدولة في الأستانة. عند مغادرة الشنيفي للحريق انفرد ببعض كبار آل خثلان، وألح عليهم الذهاب في الشهر القادم للدرعية، حيث سيكون هناك ويرتب لهم لقاء مع الأمير والإمام، وليس من رأى كمن سمع.

حينما وصلوها لاحظوا وجه الشبه بين واديهم ووادي حنيفة من حيث كثرة الروافد، وأوجه الخلاف حيث وادي الفرع ليس سحيقاً كما لا توجد كثير من المزارع على ضفته الأخرى. لم يجدوا الشنيفي وأخذهم القوم إلى مسجد قديم متهالك البنيان، ملحق به "صُفة" وهي حجرة غير كبيرة متسخة الأرضية، يسكنها غلمان يقولون إنهم معتكفون في المسجد حيث بينهما باب صغير. اقترب منهم أحد اليافعين ذوي الملابس الرثة، متسائلاً عن معرفتهم بمعنى "لا إله إلا الله" فوضع أحدهم يمينه على مقبض الخنجر قائلاً تأدب يا ولد، فسارع الغلام للابتعاد نحو رفاقه، الذين اتجهوا لأحد القادمين بالسؤال ما إذا كان يعبد الله أو الرب، فلما قال إنه يعبد الله قالوا هذا إيمان أبو جهل مثل الذين إذا "سألته من خلقهم ليقولن الله" فاستدرك وقال، بل أعبد ربي، فردوا عليه أن هذا إيمان إبليس الذي قال "ربي أنظرني إلى يوم يبعثون" فلما قال، بل أعبد كلاهما

توعده أنه منافق! ونهرهم شخص من بعيد بالقول إن كل من دخل الدرعية فقد دخل في الإسلام، وإنما يقال هذا لأهل منفوحة وعرة ومعال والرياض. شعر آل خثلان بالاشمزاز من ذلك المكان الرديء، وخرجوا قبل المغرب يبحثون عن مكان يبيتون فيه "كراء" لكن أحد سبعان الدرعية نصحهم بالصبر على القذى، وأن الشنيفي سيحضر بكرة ويتدبر الأمر. بين العشائين جلسوا يستمعون الحديث العجيب في ذلك المسجد، قال أحدهم بوجوب تمييز الإلوهية عن الربوبية، وأوضح أن الأولى هي أعمال الخلق لخالقهم مثل الدعاء والذبح، والثانية هي أعماله سبحانه مثل الخلق والرزق وإنزال المطر، فعارضه رفيقه بأن الأمر عكس ذلك حيث أدعية القرآن بالربوبية (رب اجعلني مقيم الصلاة - ربنا وتقبل دعاء) واخذوا يختصمون، آخر قال إن الأسماء والصفات من أسس التوحيد، فعادوا للنزاع حولها بعدة أقوال مثل "يداه المبسوطتان" وتساءل أحدهم عما إذا كانت فيها أصابع وأظافر تحتاج تقليم؟ فسارع جالس لتوبيخه بأن مالك وابن حنبل نهوا عن هذا، وأن الصفات معلومة والكيفية مجهولة والسؤال عنها بدعة والخوض فيها فتنة، وأنه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير، لا يسمع بعظمة ولا يبصر بشحمة. استفحل جدالهم العقيم وتخطئة بعضهم البعض، بحجج من كتاب الله لا تدل على ما يعنونه من أفكار متناقضة بلهاء، فقال أحدهم إن الله "خالق كل شيء" ثم قال "إقراء باسم ربك الذي خلق!" فهل الخلق إلهية أو ربوبية؟ وقال ثاني "فصل لربك وأنحر" هي هنا ربوبية فكيف تجعلها إلهية؟ استفزوا بعضهم حتى بلغ الأمر التجهيل، ثم تفاقم حتى تسابوا بقذف كلمات الكفر، فقال منهم قائل أنت مرتد مشرك فرد عليه بأنه منافق فاسق، وثالث قال بل هو فاجر كافر، فسأل الخثالين خالقهم العفو والسلامة وخرجوا لأداء فريضة العشاء.

في الصباح جاءهم الشنيفي مسرعاً معتذراً لوضعهم في ذلك المكان، وتوجهوا نحو مبنى ضيافة مبسط لكنه نظيف ومرتب، ثم عاد إليهم بعد العصر مبيناً أنه قد رتب لهم لقاء مع الإمام ابن عبد الوهاب بعد غد، ومع الأمير ابن سعود في اليوم التالي. شاركهم المكان قوم من الوشم وبعضهم من سبيع، وأخذوا يتبادلون الحديث حول الإمام والأمير، قال أحدهم أنه يجب الحذر عند الحديث، فكلاهما يتربص للعثور على ما يستخدمه للاستهزاء أو لتسفيه مجالسيه، وبين أن أحد الكبار طلب إيضاح البيعة فقليل "إنها على الإسلام" وعندما طلب تحديد الزكاة ومصارفها بدقة، حتى لا تبرز تأويلات "عوجاء" أجيب أنهم "أهل العوجاء" كناية لإحدى قرى الدرعية التي يزداد تعرج الوادي عندها فغضب وأنصرف. كما أن المليحية قد أحضروا مثلكم هدايا من خيل وإبل وغنم فقليل إنهم بهديتهم يفرحون، حيث يحبان الأنفال والفيء والغنائم، التي يسلبونها من الفقراء ويعطونها للأغنياء. وهما لا يحبان الاستماع للغير، بل أن يستمع الناس لهم، ومن يقبل

أقوالهم ورأيهم فهو مؤمن من أهل الجنة، وغير ذلك فهو من أصحاب الجحيم وليس على صراط مستقيم. كما أن العقيدة "الرباعية" أي الإيمان بالإلوهية والربوبية والأسماء والصفات متصلة في قلوبهم، لا يقبلون النقاش حولها وقال السلف الصالح أنها تؤدي إلى الالتباس والخوض ثم الفساد. وأنه لا يتبعهم سوى المقهورين أو السفهاء مثل غلمان الشيعب، الذين يأكلون وينامون ثم يُدفعون عند الغزو نحو المقدمة لتلقي الطلقات الأولى، بينما يبقى الإثنان وأقاربهم في المؤخرة. في المساء اجتمع الخثالين للتداول حول لقاء الغد، فقال أحدهم لو كان الأمر مثل ما سمعنا، فكيف نعود بالخيبة للحريق؟

عندما دخلوا على الإمام ابن عبد الوهاب وجدوه هاشماً متبسماً صافحهم بحفاوة وترحاب، عكس ما حدثوهم عنه من لقائه الغليظ اللفظ العبوس لمن يأتيه، ولم يطلب من أحد أن يقبل يده أو ركبته، فاستبشروا وتعودوا من الشيطان الذي يزين للبعض الافتراء، ولاحظوا ارتدائه ملابس فضفاضة ملونة ذات نوعية جيدة لكن من غير الموشى والثمين. ورغم امتلاء مجلسه البسيط ذو الزرابي العربية والأرائك العادية بالزوار، إلا أنه اهتم بهم وسأل عن جماعتهم وبلدتهم، ولما أشار أحدهم لما عانوه في مضيعة مسجد الشيعب اعتذر عن ذلك، وشكر لهم هديتهم مفيداً الجلوس أن العشاء الليلة منها، وأن اليد أحياناً تضيق ويضطر للاستدانة. استفسر عما شاهدوه في المعتكف، فقالوا إنهم وجدوا غلماناً أصابهم شر عظيم، فهم ينفرون المسلمين بمظهرهم الكريه وكلامهم، ويتربصون بمن يأتيهم فينقدون من يتورك في التشهد الأخير لأنه بدعة، وآخرون يلومون من يتركه لأنه سنة واجبة! أما المشكلة الكبرى فهي الامتحان بالخوض في الصفات ومسارعتهم للتكفير على أمور مختلف عليها، وكذلك الجدل حول الإلوهية والربوبية. ومعلوم لدينا منذ زمن الصحابة "المقربين" أن الاسم الأمثل هو "الله" لا يشارك فيه شيء، أما الرب فهو السيد المتصرف في منزله أو متجره أو إبله، فإن أحدهم يسقي "ربه" خمراً، وهناك امرأة "العزیز" وعرش بلقيس "عظيم"، وقد قال سبحانه " ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" ولم نجد مسوغاً عند سلفنا الصالح، يميز اسم الله بأعماله تارة أو بأعمال الخلق تارة أخرى، ووجدنا بعضهم يسب آدم أبو البشر، لأن الله عهد إليه فنسي ولم يجد له عزماً، كما أنه وزوجه مشركين بعد أن آتاها الله الصالح، وهذا تأويل خاطئ لكتاب الله عرضه الفتنة. وحبذا لو ينصح الغلمان بنبذ تلك الأمور، وتعليمهم أصول الطهارة في البدن والثياب كما أمر الله، وحثهم على الخشوع في الصلاة التي ينفقونها سريعاً، والذي قال المصطفى لفاعله "إنك لم تصل" وهي عمود الدين، ولما نصحناهم وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم مثل كفار نوح. بدا التمعض على الشيخ ثم رفع يمينه وحيا الحضور وهناءهم بالتوحيد والنجاة من الشرك،

وأخذ يتحدث في مواضع عديدة، تدور حول عدة أمور ثم تترد نحو التوحيد. التفت نحو آل خثلان قائلاً إنه يلزمهم تجهيز أربعين مقاتل للمشاركة في الجهاد ضد الكفار، فأجابه كبيرهم بأنهم متأهبين لذلك وأكثر، متسائلاً عنهم ومكانهم فقال إنهم عبدة الأوثان في الخرج وسدير، فرد عليه بأنهم لا يعرفون أحداً هناك يعبد التماثيل، وحتى في زمن مسيلمة الكذاب لم تكن هناك أية أصنام في نجد بعد أن حطمها ثمامة، ولا يخفى على جزيل علمكم عدم جواز تكفير وقتال من يقومون بالأركان الخمسة ويجتنبون الموبقات السبع. ظهر المزيد من تغير سمات الشيخ ثم بدا أنه يحرك بنصر يسراه ويرمش بعينه. فتحدث رجل قائلاً هل تخافون القتال، فردوا عليه بالنفي وبينوا أن أسلافهم قاتلوا أُنجدات (خوارج) لأنهم قطعوا طريق الحجاج، وسرقوا وقتلوا وسعوا في الأرض فساداً، فحق عليهم القتل والصلب والقطع والنفي، وكذلك فعلنا في الباطنية (قرامطة) مثله لما عطلوا الزكاة والحج و جلبوا لديارنا الفسق والمنكر. أما قبل قرنين فقام جدنا الأكبر وحشد من المسلمين بمحاربة الطاغية "البُكيرك" عندما غزا بلاد البحرين حيث نجحوا، وقد خثلنا بطون جنوده المدججين بأسلحة البرتغال، التي لم يرى مثلها في البحر الشرقي. وكان عليه سلطان من الله الذي كفر "بجلاء" من قال إن الله ثالث ثلاثة، ولولا خيانة الرافضة وتخاذل بعض أهل اليمامة لما تمكن من بناء قلاعه على السيف. قال أحدهم إن لديكم في حريق نعام فواحش ومنكرات وترك للفرائض، والشعراء يشيرون بنساء المسلمين ويحرضون على الفجور والزنا، ثم ذكر أبيات مثل قول "وسط جوفه اليوم وأمس وقبل أمس" فردوا عليه أن ذلك كلام تافه لا يقصد منه الجد! والشعراء لا يتبعهم إلا الغاؤون وهم قلة. ثم أردف آخر بأن في منطقتكم (جنوب اليمامة) قبور وأشجار يتعدها البعض وهذا شرك أكبر وعلى كل مسلم أن يقاتل الكفار والزنادقة ويخرجهم من بلاده. قاطعهم الشيخ بأن المسلمين يعولون على سبعان الجنوب، ويؤملون مشاركتهم في الجهاد ضد المرتدين، فأجابه خثلاني بوجوب حسن الظن بأهل القبلة، وإنهم يرون البدء بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكما أمر الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالرفق. بدون ضرر على الأمر أو المأمور، حتى يتبين من لديه مجرد معصية فيقام عليه الحد الشرعي، وأما المحارب للدين فعند ذلك ينذر ثم يقاتلونه. وقد سمى الله أولئك "المفلحون" و "الصالحون" في نفس السورة، نسأله أن يجعلنا وإياكم والسامعين منهم، المحتسبون الأجر منه وحده لا يبيغون علواً ولا فساداً. أما تكفير الرعاة في البرية لأنهم لا يعرفون تفاصيل الربوبية والتجسيم ثم سلب مواشيتهم، فذلك مما وبخ رسول الله عليه أسامة بعنف قائلاً هل شققت عن صدره؟ أثناء إلقاء المزيد من النصائح وحث أهل التوحيد على الصبر والتبشير بالنصر، دخل أحد الخدم مسرعاً ينبئ عن وصول "الحساوية" فهب الشيخ نحو المدخل للقائهم، وبالغ في تحيتهم

وأن الجميع رفضوا تقديم العشاء لحين وصولهم. احتوت المائدة الأرضية على لحم الضأن والجمال مع ثريد الرقائق والحنطة المجروشة، والشراب ماء زلال وحليب ولبن حامض ثم نقيع تمر عبيط. عادوا للمجلس حيث كرر الشيخ الوعظ، والحث على قتال المشركين والمرتدين، حتى قاطعه رجل من الإحساء متذمراً من زمرة المعتوهين الذين أرسلهم الشيخ إلى هناك للتدريس. لكنهم أخذوا يكفرون رموزهم ويحرقون كتبهم، ثم تحدث رفيق له بأن ما قاموا به من سب لشيخ الإسلام عند الشافعية (ابن حجر) أمر منكر بشدة. وعاب عليه حتى الشيعة والفرس في الإحساء ناهيك بأهل السنة، ثم زادوا الطين بلة بتقديسهم لابن تيمية الذي يعرف أكثر أهل الجماعة فساد معتقده، ثم انبرى ثالث بالقول هل رأيتونا نسب شيخكم أو نحرق كتبه؟ إنما نحن نبحت له عن الأعذار رغم فداحة أخطائه، حيث أساء إلى خالقه بأنه إستوى على العرش على مقعدته! وكفر من يذهب لزيارة قبر سيد الخلق أجمعين، واستهزاء بالصديق أنه "خرف" واتهم الفاروق بالابتداع "الطلاق" وهو العبقرى الذي أيده الصحابة. كما سب عثمان لحبه للمال واتهم علي أنه يطلب الرئاسة والعلو، فهل بعد ذلك ما هو أسوأ من افتراءات الزنادقة على دين الله. لقد أوضحوا للشيخ رأيهم بحدة، وبخاصة ما قام به ابن القيم بعد ذلك من تدليس كتابات ابن تيمية، بدعوى "التهذيب" وكيف أنه كذب عليه بعد موته. وأزال ما في كتبه من تجسيم وتمثيل وتكفير وشرك، كما حرف أقواله في مدح القرامطة، وبعد هذا تريدوننا أن نتخذه قديساً لنا، ونأتي يوم القيامة قائلين "إنا أطعنا سادتنا وكبرائنا" فلا والله لا يكون ذلك. كان الشيخ مستمراً في الإشارة بيميناه ليستمعوا له، وفي لحظة صمت رفع صوته بشهادة أن لا إله إلا الله، ثم قال إن الأمر له ثلاث نواحي، أولاها أننا لا نكفر إلا من كفره الله ورسوله، وافترى علينا من قال إننا نكفر من لا يوالينا. ثانيها أن ابن تيمية وابن حجر من الفقهاء النابغين لدينا، ولا أحد يسلم من هفوات لا تؤثر على التوحيد، وعلينا ألا نتتبع زلات من سبقونا بالأيمان. وثالثها عدم جواز المبالغة في مديح النبي، الذي نهانا عن أن نظريه كما فعلت النصارى مع عيسى. لم يدعه كبير القوم يكمل حديثه، فقاطعه قائلاً وهل قال ابن حجر "إن الله هو محمد" أو يغضبكم القول انه سيد البشر؟ ومن ترون أهلاً لذلك؟ أسرع شاب منهم، بل يعتبرون ابن تيمية وابن حنبل هما سادة الأولين والآخرين، أشاح له بإصبعه ليصمت وقال إن أحمد يعرف الناس وهو من قال "كل الفقهاء عالة على الشافعي" ومرسلهم البلهاء يطعنون فيه هو وأبو حنيفة ومالك ثم البخاري ومسلم، ويقولون انهم سمعوا ذلك منك، ورأوك تلقي بكتب الصالحين في النار، فهل هذه حربكم على البدع؟ شتم فقهاء قرون الخير وتتبع الضالين من قرون الشر، الذين حذر منهم من أمرنا أن نحبه أكثر من أنفسنا، عليه الصلاة والسلام، وأتباعكم يريدوننا أن نناصره وخلفائه وصحابته

المقربين العداء، وتتبع ديناً مبتدعاً مليئاً بالتحريف! وما هي بدعة "التشمم" حيث يتهمون الناس بأن فيهم رائحة المرجئة، أو القدرية أو المعتزلة أو الصوفية أو الأشاعرة؟ ثم ما بدعة "امتحان الإيمان" التي جاء بها من سموا أنفسهم "مدرسون" وهل تحريف امتحان المرأة المهاجرة خوفاً أن تكون قاصدة الخلع من بعلمها بإقامة البينة عليها، يجوز عندكم كذريعة لذلك؟ وقد قال سبحانه في نفس الآية "فامتنحوا لله على ما علم بإيمانهم" وإذا كان أولئك السفهاء لا يعرفون، فهل يجهلكم حديث النبي المنفق على صحته في شأن "ابن الدخشم" وما نهى عن الخوض في إيمانه بعد اتهامه بالنفاق؟ وهل تعلم أنهم صاحوا في أهل السنة وبحضور رهط من شيعة الإحساء أنهم لا يعرفون كلام الله ولا نبيه، بل يتبعون ما قاله ابن تيمية ويضربون عرض الحائط بما سواه، مما جعل الفرس يستهزئون بنا وينشرون ذلك الفساد عند الرافضة. وهل يُقبل أن تقوم طائفة من الفسقة بالتستر خلف نشر التوحيد ومحاربة البدع، وسوء تفسير بعض الآيات والأحاديث ليشتعلوا الفتنة والبغضاء بين المسلمين، ويضعفوا شوكتهم مدعين أنهم "الفرقة الناجية" وغيرهم من أهل القبلة كفر مرتدون، تستحل دمائهم وأموالهم، ولمصلحة من هذا العمل من "الفرقة الضالة" وهل تناصرونهم عليه؟ أنسيتم ما قام به أهل الإحساء لدعمكم حينما آذاكم أهل البصرة، وفررتم عندنا فأكرمناكم، ثم منعنا الخوالم من التعرض لكم وأنتم عند أهلنا في حريملاء. وما زلتم غير قادرين على ردع سليمان فيها، ولا مقاومة دهام في الرياض على مقربة منكم، وبعد أن أحسنا الظن فيكم وعرضنا مساعدتكم في الإحساء، أرسلتم لنا الشياطين لإفساد ديننا السلفي، فهل نأتمنكم أن تجازونا بمثل فعلكم مع عثمان بن معمر؟

عند ذاك شعر آل خثلان بحدة الجدل وعدم جدواه، لذا سارعوا بالقيام والمغادرة، قائلين أنهم سيلتقون مع الأمير محمد ثم يعودوا لبلدتهم، ودعهم الشيخ وأبدي رغبتهم لقائهم بعد الفراغ من مجالسته. أمضوا رداً من تلك الليلة يتباحثون في لقاء الغد، وفي ما سمعوه من الحساوية، حيث قال أحدهم حتى لو كانت هناك مبالغة في كلامهم، فإن في ذلك شر عظيم. وعلينا الحذر لكيلا ندخل في أمور تغضب خالقنا، وتحدث آخر بأنه لم يسمع من الشيخ كلمة رديئة قط، بينما تحدث القوم بغلظة غير لائقة وتهويل. وأشار أحدهم أن ليس المهم ما تقوله بل "كيف يقال" ثم طلبوا من "أبو علي" الجد الثالث لو الذي أن يبدي رأيه، وقد كان من أصغرهم فقال لله در ابن عبد الوهاب، فهو صابر على الأذى ليس من مناوئيه فقط بل من معاونيه أيضاً. والجد حمد بن راشد له علاقة قديمة مع سبعان وادي حنيفة، حيث يتردد على العوجاء مع والده، في تعاملات تجارية وشخصية مزدهرة آنذاك.

في مجلس الإمارة لاحظوا حسن الترتيب ودقة المتابعة، مع بساطة المظهر وعدم التكلف، وتوجد مناظرة عليها دفاتر وكتاب وقراطيس مرتبة جانبياً، ومن المعلوم أن بلدات وسط جزيرة العرب آنذاك لم يكن لها أمير، بل رئيس (ريس) ولا توجد سجلات منتظمة للمراسلات أو الحسابات النقدية، مثل ما رآه في غرب الجزيرة (الحجاز) أو شرقها (الإحساء) المتأثرة بالنظم التي وضعها سليمان القانوني قبل قرنين. وقد فهموا من أحد العاملين في الديوان أنهم قد جلبوا رجل نجد من الزبير، عمل في ديوان والي البصرة، وهو يقوم حالياً بترتيب سجلات عن الأموال والرسائل وقتلى وجرحى الغزوات، بشكل متقطع وعلى قدر المستطاع. أما في البلدات الأخرى، فالسجلات تركز على القضاء والحجج الشرعية والمدائبات والوصايا، ويحفظها ذوو العلاقة أو طرف ثالث مؤتمن أو شاهد، وفي كل قرية ريس لأكبر العشائر أو الأسر، ممن له رهط وخدم وحرس، وباقي الأسر لها كبير أو شيخ العقلاء، وتحل النزاعات داخلياً ليس للخارجي قول فيها. وإذا استفحل النزاع يحل الأمر بتوسط الأسر الأخرى، وعقلاء الأسرة يبتون في الأمر، أما الخلافات المستفحلة أو بين عدة أسر فيعقد لها مجلس خارج مقر الرئيس، عادة ما يكون في مظلة (عريشة) مجاورة لمكان أحد الخدم (المعاتيق) حيث يعد ضيافة مبسطة ويحضر ذوي الشأن، ويتم تداول الأمر بالحسنى، وإذا تعذر يركن لاختيار محكمين متطوعين أو بأجر إذا كانت القضية تستلزم الجهد، مثل معاينة المباني أو الزرع أو مجاري السيل، وعند تعذر الصلح تحال للقاضي. عادة لا يحضر الرئيس إلا اللقاءات الهامة، أو التي تشمل عدة أسر ويخشى استفحالها، كما لا يستدعى لمقر الرئيس إلا من عليه جناية، ويرسل له خفارة لجلبه إذا تفاقم النزاع فعند ذاك يأتي السلاح، وإذا عجز الرئيس عن حسمه فقد يفقد سلطته ومنصبه على عشيرته أو البلدة. كان أسلاف محمد بن سعود (ذرية مقرن بن مرخان المريدي) رؤساء الدرعية منذ مغادرتهم درعا حوران إلى غرب القطيف، ثم استقرارهم في وادي حنيفة، ويلقب كبيرهم (الرئيس) وبعد اتساعها أخذوا لقب الأمير، وهو معروف منذ صدر الإسلام وعند البادية، لكنه غير مستساغ في قرى نجد. كما أن القاب العثمانيين مثل الوالي والمتصرف، غير مقبولة، ولا ألقاب معاونيهم مثل السلحدار (أمين مخزن السلاح) أو البيرقدار والدفتردار، وذلك على عكس شرق وغرب البلاد، الواقعة تحت الهيمنة التركية الكاملة. تأخر قدوم الأمير وأخذ أفراد الجماعة يتداولون حول أحوال إمارة الدرعية (الدولة) حيث بين البعض أنه رغم مرور عشر سنين على اتفاق الإصلاح، فما زالت البلدة عاجزة عن بسط نفوذها على الجوار الملاصق، فالرياض جنوب شرق تعاديتها بعنف برئاسة ابن دواس، وحریملا شمالاً تتربص لها بقيادة المبارك وأخو الشيخ، ولا أثر لدولة أو إمارة فعلية. تلزم الإشارة إلى أن الحديث عن الرياض آنذاك، لا علاقة له

بالرياض الحالية، ولا حتى ما يسميه البعض الرياض القديمة (المصمك) الذي لم يبني إلا بعد أكثر من قرن على تلك الحقبة، فالرياض كانت شمال موقع المصمك الحالي، عبر مجرى السيل الشمالي (شعيب شمس) أي شرق محلة الظهرية حالياً، حيث موقف السيارات المتعدد الأدوار جوار مقبرة "شلقا" وتشمل دكاكين ابن سليمان وحتى مجمع الوزير الجديد، حيث يصب الشعيب في وادي الوتر (البطحاء) وتمتد شمالاً حتى المقبرة الواقعة شرق عمارة العزيرية التي أوقفها الملك سلمان للجمعية الخيرية على شارع الخزان، أما الفراغ بين الدرعية والرياض فقد كان به قرى صغيرة متناثرة وسط الفيافي والتلال الجرداء. كانت "معكال" تقع شمال منفوحة، شرق منتزه سلام حالياً، أما "مقرن" فشمال سوق المعيقلية جنوب عمارة الباخرة (العجلية) و"صياح" جنوب شرق مستشفى الشميسي، والحبونية غرب منفوحة (عتيقة) سوق الخضار. وهي قرى بكل منها ثلاثين إلى خمسين منزل، جوارها بئر ماء وزراعات طفيفة عشوائية ونخيل، لا تتجاوز مساحتها ثلاث "بلكات" من المعروف الآن، ولا وجه للمقارنة بالرياض الحالية التي تجاوزت مساحتها 5000 (كم2) ما يقارب مساحة بعض الدول الصغيرة.

ارتج المجلس بحركة وجلبة ثم ساد السكون برهة، فدخل المكان رهط من الخدم والحشم والحرس المسلحين اصطفوا عند الصدر، ثم جاء الأمير محمد (بن سعود) ووقف جواره بعض أقاربه وجماعة من آل مقرن ومن ذرية مانع المريدي (المردة) الذين لم يبق منهم الكثير في الدرعية، بل تفرقوا في أنحاء نجد والعراق والأحساء. بدت على الأمير علامات الشيخوخة المبكرة، وجواره ابنه عبد العزيز متوعداً ثم عبدالله ابن آخر بدا في عنفوان شبابه، وعرفوا فيما بعد أن اثنان من أبناء الأمير قد توفوا في المعارك حول الدرعية، وكان هناك بعض أبناء إخوة الأمير وبني عمه. إلا أن درة المجلس كان طفلاً (دون العاشرة) عليه ملابس ناصعة البياض وموشاة، تبدو عليه الحدة ويكثر الحركة ويتدلى على كتفيه جديلتان. عرفوا لاحقاً أنه سعود حفيد الأمير والشيخ (؟) لذا نال حظوة المولد من الطرفين، وبهابه أربعة أتباع يلازمونه كظله. أما رأس المجلس ابن سعود (رئيس الدرعية) فهو آية في الحشمة والوقار، لا تكثر الحركة عنده ولا ترتفع الأصوات، مع تنظيم دقيق للمكان، حيث بداء الحديث مع أقاربه قليلاً ثم مع مجاوريه من كبار قادة العشائر ورؤساء الأفواج، ثم رتبوا قيام بعض الحضور للتوجه عنده ومشافهته فيما لديهم. جاء نحوهم أحد التابعين يستنهضهم لاختيار أربعة ليتوجهوا لمحادثة الأمير فور إعطائه الإشارة لهم، كرروا التحية من مقدمهم بين يدي الأمير، وحمدوا الله أن هدى كثيراً من المسلمين لتجنب البدع وجوارح التوحيد وأعمال الفسوق. رحب بهم وتحدث عن دور رجال سبيع في السنوات الماضية، وبدا بجلاء أن الرجل معجب بأعمال حاضرة القبيلة، أما البادية فقد تحدث

عنهم بغير الرضا، وأنه مستاء من تصرفات بعضهم ومساعدتهم لأعداء حركة الإصلاح، كما استنكر عصيانهم لله وولاية الأمر وتخاذلهم في دفع الزكاة الشرعية. بعدها أفصح لهم عن رغبته أن يشاركوا في الجهاد مع المسلمين، فأجابه أكبرهم بإصبعين أن الأمر الأول أن المصطفى أمضى أول خمس عشرة سنة بدون رفع سلاح على عبدة الأصنام، إنما أمر بالمعروف ونهي عن المنكر والجدال الحسن حتى نزل الإذن بالقتال (الحج) والثاني أنهم في غضاضة من قتل مؤدوا الأركان الخمسة، ومجتنبوا الموبقات السبع ومن لم نر منه كفر بواح، لدينا عليه من الله سلطان ودليل. عند ذلك احتد الأمير وقال هل هناك أعظم ظلماً من الشرك؟ وأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك، كما حذر نبيه أنه لو أشرك ليحبطن كل عمله، فأجابه ابن ختلان ذلك صحيح، ولكن هل إقامة السنة بالسلام على أهل القبور شرك؟ إذا وجدت بدع منكرة فينهي عنها بالحسنى أولاً قبل القتل. سارع عبد العزيز بالقول هذا هو المرام والمطلوب البيعة عليه، فرد بقوله إننا ما تركنا ديارنا وقومنا إلا لنبين لكم مؤازرتكم في نبذ البدع وإقامة شرع الله، كما كان لدى الصحابة وسلفهم الصالح في قرون الخير الثلاثة. لا نسب أو ننتقص من أحد منهم، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت، وأما من جاء بعد ذلك فله رأيه ونظره ويلزم نفسه فقط، ولنا اجتهادنا بما في الكتاب والسنة ورأي السلف الصالح. قال عبدالله (ابن الأمير) فكيف تبايعون؟ أوضح لهم الرجل أننا نعاهد الأمير محمد بن سعود بالعمل على كتاب الله وسنة نبيه، في العسر واليسر والمنشط والمكره، وأن نكون عوناً له في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونبذ البدع، وألا نساعد من يعاديه في جهده هذا، لا نبغي من ذلك جزاء ولا شكوراً. فقال الأمير هذا حسن ونؤجل عنكم الجهاد (المقاتلة) ثلاث سنين.

فور عودة الجماعة للحريق التقوا مع كبار أسرة آل ختلان، الذين تساءل بعضهم عما إذا كانوا قد أزموا عشيرتهم بالمشاركة في تكفير المسلمين، وأخذ حلالهم للدرعية ليتقوى بها ابن سعود، وينثر عليهم الفتات؟ وأنهم لو لم يخافوا الله لعملوا كغيرهم في قطع السبل، وسلب الناس أملاكهم والاحتفاظ بها كلها بدون حاجة لأمر، عاجز خلال عشر سنين عن بسط نفوذه على قرى تبعد عنه بضع ساعات، تمت تسوية الأمور وإيضاح الوقائع بالطريقة المحببة داخل الجماعة. عند لقاء بقية أسر البلدة تباينت الآراء، فقد قال أحدهم أن من وصفهم بعباد الحجر والشجر كاذب، فمنذ بعث الله محمد عليه الصلاة والسلام لم نعبد سوى الفرد الصمد، وإننا لسنا بحاجة للزنادقة أن يعلمونا أصول ديننا الحنيف كما في الكتاب والسنة. عشيرة أخرى أقرت بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن مشكلتها في المسميات! مثل جعل التزام السنة شرك بالله، وأخرى تحفظت عن البحث في الأمر، بدعوى أنها تعرف الإيمان والعمل الصالح

منذ زمن بعيد، وعشيرة صغيرة استمعت للحديث بعدم اكتراث، قالت بعدها أنها سوف "تشوف" الأمر. أحد العارفين قال إنكم في وادي الفُرع منذ قرون، وتعلمون بعدم وجود أي أوثان من حجر أو خشب أو حديد تعبد، والقوم يؤدون الصلاة ويصومون ويزكون ويحجون، وليس عندنا ضريح يتوسل به ولا شرك أو كفر أو ردة، أما الفواحش والفسوق والمنكرات فحدث ولا حرج. لقد غدت الحريق منذ مائة سنة وكرأياً يأوي إليه كل عبد مارق من مولاها، وجاء البعض مع نسائهم وذريتهم وتكاثروا، ورغم أن معظمهم من أهل الورع والأمانة، إلا أن قلة منهم فاسدون ونشروا الفسوق والمنكرات، من زنا ولواط وتحضير الجان والصيرفة الربوية، سواء في حلة البلدة أو خيام في ضواحيها!

قررا التوجه إلى مقر العثمان أمير الجلاسية أكبر عشائر الحريق آنذاك ومتولي الرئاسة، لكنه طلب منهم تأجيل اللقاء لبعد عصر اليوم التالي، وفوجئاً بوجود فوج من معظم أسر البلدة، فقالا أنهما قد جاء في كلمة رأس معه (مناجاة) فرحب بما لديهم وأوضح أن هذه قرية صغيرة وليس فيها ما يخفى، ولا كلام إلا بعد الطعام، حيث وجدوا مائدة عامرة كعادة ذلك الأمير الفاضل ذو النفس الطيبة السخية. انتشر البعض بعد الوليمة لكن تبقى عدد آخر غص بهم المجلس، ومنهم أفراد من آل ختلان الرافضين لما قام به الجماعة من زيارة الدرعية، وكثير من الأسر الأخرى ذات الفكر المشابه. وجلس على يمين العثمان رجل ممن وفدوا للحريق مؤخراً، ويقول إنه من ذرية المصطفى، يليه تاجر نخاسة ثم أحد الصرافين، وعلى يساره فقيه مسترزق وبعده أقارب العثمان. تحدث ابن ختلان عن الدرعية وما لم يعجبه فيها، ثم أثنى على أهمية الدعوة للمعروف والإصلاح والنهي عن المنكر ليكون المرء من المفلحين، فسأله عما رآه من المنكرات، ولم يتركه زميله يكمل حيث سارع للقول بأنها كثيرة، فهناك مرابون يحضر إليهم الناس من الخرج والحاير وليلى، وهنا من يحضرون الجان ويتوسلون بهم ويقدمون لهم القرابين، ثم الذين يطبخون العبيط لعمل المسكر. والأدهى من ذلك أولئك الشعراء الذين يشببون بالفتيات ويغونهن للفاحشة، ثم تعلمون عن بعض الماشطات والمدلكات اللواتي يدخلن البيوت ويصفن للفتيات حسن بعض الصبيان، ويرتبن لهم اللقاء ويدبرن دخول المنازل في ظلمة الليل، ويعرفونهم أماكن النوافذ وسبل تسلق الحوائط لممارسة الزنا. أجابه الأمير بعدم وجود الربا، أما المداينة والمكاتبة فهي حسب النص القرآني وليس بتوسع البعض في التحريم، ولا توجد حضرة جان، بل هناك علاج للوسواس بالتوهم، حيث تجرى قراءة آيات الرقية وبعض النقر والضرب على الدفوف الجائزة شرعاً، أما قول البعض عن إشاعة الفواحش، فتعلمون عن نهي الله عن الخوض في ذلك، ومن لا يقدم أربعة شهود فأولئك عنده كاذبون. واستشهد بقول الشافعي: --

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معائباً فدعها وقل يا عين للناس أعين

سارع الرجل بالقول إن الإقرار أعظم من الشهادة، وقد تحدث أحدكم شعراً ونثراً أن ميله في جوف مكحل هيا عصر أمس في الروشن الغربي، والاعتراف سيد الأدلة. بادر مدعي الشرافة بالرد غاضباً فحذره من التطاول على الأمراء والكبراء، أو يناله ما أصاب غيره من الطرح في السوق والضرب على ظهره ووجهه، ثم أضاف أن صبيانكم لم يسلم منهم البشر وحتى الحمير والبقر في الشعيب، وبعضكم يشرب الحرام واستشهد بشعر الدؤلي: ---

لا تنه عن خلق وتأتي بمثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وإذا عتبت على السفية ولئمته في مثل ما تأتي فأنت ظلوم

تعجل الفقيه الذي لا يمانع أن توضع الدراهم في جيبه، لكنه يأبى أن يشترط مبلغ محدد! بتوبيخه لقله علمه وإدراكه، ثم قال أما أنت يا ابن خثلان فيا أسفاً على إضاعة دينك، فقد عدت من الدرعية وقد اكتسبت عقيدة الباطنية الضالة، الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يحللون ويحرمون لهم بتأويلات مبتدعة. إن علينا الحذر من أولئك العابثين بكتاب الله ومنقضي قدر رسوله وآل بيته، الشاتمون للخلفاء الراشدين والصحابة المقربين، ومن أحرقوا فتح الباري في البخاري وصحيح مسلم، بل رفضوا آلاف الأحاديث لإبن حنبل، وطعنوا في فتاوى أبي حنيفة ومالك والشافعي، ويتبعون فقط مشايخ الضلال في قرون الشر المتأخرة، ومن لا يقبل رأيهم فهو ليس من المسلمين، وإذا جابههم السلطان تباكوا مدعين أنهم على نهج السلف، ويحلفون كذباً أنهم ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر. ثم أردف متسائلاً لمصلحة من يدعي الباطنية أنهم فرقة أهل الجنة، وبقية أهل القبلة (سبعون فرقة) في الجحيم؟ ألا يرى الجميع سفن البرتقال والانقليز تجوب بحر العجم، وتتربص بالمسلمين، وهم يعاونوهم بنشر الفتنة والتكفير بين المسلمين. عند ذلك ارتفعت أصوات أكثر من في المجلس مؤيدين له، داعين لإبقاء الحريق بعيداً عن سلوك ابن سعود، وكان بينهم للأسف اثنان من آل خثلان على خلاف مع جماعتهم، ويحملون الضغينة لذوي القربى، حيث دقق ابن عثمان في توجهات المدعويين مسبقاً، ورتب الأمر على ما يريد. اجتمع عدد من الصالحين من الخثالين بعد المغرب، وخلصوا إلى أن النهي عن المنكر ثلاث طبقات، أضعفها بالقلب ثم باللسان وهي تتطلب قدر جم من المجاملة والتدبير المسبق لتكون ايجابية، أما استخدام اليد والسلاح للنهي فيلزمه سلطان وقوة.

رغم الصعوبات فقد استمر الصالحون من آل خثلان يnehون عن المنكر، بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال الطيب، ثم عادوا للدرعية وقابلوا الأمير والإمام حيث لاحظوا تحسين أسلوب الدعوة، واختيار العارفين لكي ينصحوا الناس، وأوصوهم بوجوب التحوط في نشر الإصلاح عن طريق التكفير، كما بدت بعض مظاهر الثراء في البلدة. بحثوا هناك ما جرى قبل فترة من هجوم على جنوب شرق الحائر، كان يقوده المعمر (مشاري) رفقة اثنان من أولاد محمد بن سعود، وقد أنزلوا خسائر ببعض السبعان والدواسر، قبل فرارهم سريعاً للدرعية، حيث أثر ذلك الحدث على سكان الخرج وحاكمها (العايزي) وشعروا بجدية التهديد لهم. وقد تميزت سبعينات ذلك القرن (12هـ) بسقوط معظم القرى بين الدرعية والرياض في قبضة ابن سعود، كما أيد حركته الإصلاحية عدد من البلدات الشمالية، وخرج سليمان (أخ الإمام ابن عبد الوهاب) من حريملاء فاراً بحياته ولجاء في الزلفي والمجمعة عدة سنوات، وبعد القبض عليه أودع في الإقامة الجبرية عشرين سنة حتى وفاته، وقد كان من أشد المناوئين لحركة أخيه، ولكن للدنيا تقلبات عقيمة فاعتبروا يا أولوا الألباب. رغم أن الهجمات قد اتخذت طابعاً عسكرياً، يختلف عن العمليات الغوغائية في العقد السابق، إلا أن هيكل الدولة لم يكن موجوداً آنذاك، بل إدارة عشوائية تتخذ قراراتها بوجهات النظر الشخصية، التي تتقلب من حين لآخر. كما اتسمت تلك الفترة بالشروخ العميقة، التي حدثت في عدة حالات، اختلفت قلة من أسرة الخثلان مع جماعتهم، وكانوا يرون البقاء سادة قرارهم، يتعايشون مع بقية عشائر بلدتهم والأعراب بالطرق المحببة، لا أن ينضوا تحت سلطة بلدة أخرى. في الدرعية حدث شرخ بين أقارب ابن سعود، ونزاع جرى حسمه بنفي البعض للرياض أو سدير أو الزبير، ومثل ذلك بين الوهبة وبعض أحوالهم. قبيلة سبيع حدث فيها أمر قبيح لم يكن له مثيل منذ القدم، حيث انحازت البادية مع مناوئ الدرعية وبقي الحضر على ولائهم لها. جاء بعض الجلاسية قائلين إن آل عثمان تسببوا في أذى للحريق، وأنهم يريدون التخلص منهم، وكان رد آل خثلان حاسماً أنهم ينزهون أسنتهم وأيديهم عن المساس بالغريب إلا بحق بين، فما بالكم بالجار القريب ورغم ما يوجد من مخالفات غير جسيمة، إلا أن العثمان من خيرة الناس خلقاً وفضيلة، والنصح بالحسنى له أثر كبير عليه.

انتظمت العمليات الحربية عندما أسندت قيادتها للابن الأكبر لمحمد بن سعود (عبدالعزیز) الذي كان زوج ابنة الإمام محمد بن عبد الوهاب، وأصبح يقود العمليات بحسن تدبيره ونفوذه، أما في السابق فلا يستطيع القائد السيطرة على المحاربين إلا بالمجاملة، وتغادر أي عشيرة ميدان المنازلة إذا وجه رئيسها بذلك، عند اعتراضه على أي قرار لا يروق له. كان يساعده في قيادة المعارك الأمير عبد الله، الأخ الأصغر له ذو الرأي والفتنة والسماحة، وهو الجد الثالث للملك

عبدالعزیز رحم الله الجميع، وكان الأخوين لا يخرجان عن رأي والدهما الأمير ولا عن رأي الإمام. لكن الأمور لم تمض كلها على ما يرام، وهذه السيرة كما أسلفنا ليست سجل تاريخي عام، إنما هي استخلاص للعبر من أحداث حياة والدي، وما دار في مجلسه من حوارات عن تجاربه وأسرته وأسلافهم، لذا نقتصر هنا على ذكر ما جرت مناقشته في دارته. تداول البعض ما أصاب قبيلتهم (سبيع) من محن في تلك الحقبة بسبب سوء الإدارة، منها التنكيل الذي وقع على بعضهم في منطقة الخفس، حيث جاء مسلحون واستولوا على مواشيهم لأن من ضمنها ما يملكه دهام، ولما استغاثوا ببقية القبيلة ولاحقوا الجناة تمكنوا من استرداد حلال سبيع، لكن الأمير عبد العزيز بن محمد غضب لذلك، فبطش بالسبعان وقتل عدد منهم وصادر أملاكهم. بعد ذلك بشهور جرت حادثة أخرى غرب الوشم (قرب ثهلان) حيث نكل ببعض السبعان بقسوة وأخذت إبلهم وأغنامهم، وتكرر الأمر لاحقاً جنوب السلي (قرب جبل خنزير) مما حدا بشيوخ عشائر سبيع لمنع التدخل في الخلافات بين الدرعية وجيرانها، خاصة بعد أن قرر ابن دواس والزامل مصالحتها. لكن ذلك لم يستطع حيث حلت بالقبيلة مأساة كبرى، عندما هاجم بعض الدواسر والعجمان (من قحطان) بتحريض العائذي، رعاة أنعام يملكها أناس من آل خثلان وسهول الحابر وسبعان المحمدي، لذا لجأوا للأمير عبد العزيز بتنفيذ المعاهدة معهم، وتزامن ذلك مع حادثة مشابهة جرت غرب الوشم في مراعي سبيع، فقرر الأمير أن ينكل بالقحاطين عامة والعجمان خاصة بطرق وحشية، وكان والده محمد بن سعود مريض بشدة، والدبرة في يد عبد العزيز وحماه الإمام محمد. أدى ذلك إلى دق ناقوس الخطر لدى الكثير، فقرروا أن السيل قد بلغ الزبى، لذا قرر دهام بن دواس (رئيس الرياض) وابن زامل العائذي (رئيس الخرج) نقض المصالحة مع الدرعية، كما كتبوا للخوادم في الأحساء لمساعدتهم في شن هجوم مشترك للقضاء على ابن سعود، فوعدوهم بالحضور بالمدافع إذا وافق والي البصرة العثماني، لكن ذلك استغرق بعض الوقت حيث اسطنبول مشغولة بمعاركها وسط أوروبا (الدانوب) عن قضية جزيرة العرب. لكن العجمان كانوا في عجلة من أمرهم للانتقام من قتلة أقاربهم، كما قدروا أن الدرعية قد غدت أقوى من أن تهزمها الرياض والدلم، لذا سارعوا نحو عشيرتهم (يام) في نجران، التي يحكمها رجل قوي ويحب الأصفر الرنان، كان المكرمي من قحطان الواسعة، لكن عقيدته إسماعيلية وهي مذهب مجهول يتبناه كل من يبتعد عن السنة النبوية، مثل الفاطمية والدروز والعلوية، وحالياً يتبعها الأغا خان في شبه قارة الهند صاحب المشاريع العمرانية والرياضة و"الفن" وغيره، ورغم الخلاف العقائدي مع العجمان، فلم يمنع ذلك من تحالفه معهم وبقية بطون (عمائر) قحطان نجد، بخاصة أن جيرانه الزيود (المتوكلية) والشيعية كانوا على خلاف معه، وقد اتسم بقلة بغضه للسنة

ولا يسب الصحابة المقربين. وأوضح للأحبة أن إسماعيل الذي ينتسبون له مجهول، ويقال إنه ولد جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة رضي الله عنهم أجمعين، لكن تاريخنا يفيد أن ذلك الفتى مات في حياة أبيه، وليس له عقب سوى محمد الذي مات طفلاً. كما أن بعض الشيعة يؤيدون ذلك، ويشهدون بحضور جنازته المحمولة من العراق للمدينة المنورة، بينما يدعي آخرون أن النعش كانت به جثة عنزة متعفنة! فهل كان جعفر الصادق كاذباً؟ وتحوم الشكوك أيضاً حول من قالوا إنه الإمام موسى، نسأل الله الهداية لمن يقيم الصلاة للقبلة المكية الشريفة، والبعد عن خزعات الروافض مثل إدعاء وجود المستتر في سردابه، وهل هو إسماعيل أو الكاظم أو العسكري. تعهد حسن بتجهيز عشرة آلاف مقاتل للتوجه للدرعية، على أن يلتزم أهل نجد بتقديم المؤونة والعلف ومثل ذلك العدد من الجنود، وكمية كبيرة من الذهب، فوافقوا على ذلك غير عابئين بما يجره ذلك التحالف المشؤم على بلادهم وأهلهم.

أقبل المكرمي بقضه وقضيضه يصحبه آلاف من أتباعه، وعدد من المسترزقين الذين يبحثون عن سهم من غنائم هذه الجنود التي لا قبل لأحد بها، كان معه حشد من الرافضة والزيود والسنة (شوافع) وقلة من اليهود والنصارى، وبقية جنوده من فصائل قحطان اليمن ذوي المشارب المتعددة، لا يوحدهم سوى الطمع في الغنيمة السهلة، والقضاء على الكيان السعودي الجديد. لم يكن معهم كثير من الزاد، حيث يعلمون أنهم في الطريق نحو مخازن الغذاء لجزيرة العرب، فجنوب اليمامة أرض الحنطة والشعير والذرة، والتمر والعنب واللحوم، لكنهم اصطحبوا حشائش ونباتات خبيثة، مما يظنون أن تعاطيها يبعد عنهم الضيق والزعل ويزيد النشاط والهمة. أقبل نحو الحريق نجاب صارخ من ليلى، بلدة بني عامر السبعان قائلاً إن ألمكرمي وجحافلهم قد وصلت العقيق (السليل) وانضم إليهم بعض الوداعين، لكن الغالبية رفضوا ذلك محبة في جيرانهم وأصهارهم المسلمين، وهو متجه نحو الأفلاج ليديرها. بادر آل خثلان بإرسال تعزيزات من الرجال والسلاح والذخيرة صوب ليلى، كما جهزوا نجابين للإسراع شمالاً لإخطار ابن سعود، ثم بحثوا عن بعض الجيران من قحاطين العارض، ذوي التقوى والنخوة والمعرفة، ليتوجهوا جنوباً ويندسوا وسط جموع نجران الكثيفة، ويزودوهم بمعلومات عن إمكانيات وخطط ألمكرمي ليتأهبوا لهم. جاء النباء أن ليلى قد حوصرت، لكن تمت تسوية الأمر بتقديم كمية من النقود والطعام والعلف، وغادرها العدو متوجهاً شمالاً نحو الحائر أو ضمراً في طريقه للدرعية، لذا هروا الخثالين نحو أملاكهم في حائر سبيع، حيث قدروا صعوبة مرور القوات من عقبة الحيسية في ذلك الوقت. رافقهم عدد من رجال الحريق المخلصين، أما القحاطين (لام) فقد قرروا الحياد والعودة في بيوتهم، ورئيس الجلالية اختار عدم الذهاب، حيث إن عنزة موالية مع الغرير وبقية

خوالد الإحساء، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم. عندما وصلت قوات يام للخرج، تلقاهم زيد بن زامل بحفاوة معتدراً عن عجزه عن تدبير أكثر من ألفي مقاتل، ووعد أن المطيري في الرياض سيرسل المزيد، كما يتوقع وصول آلاف الجنود مع الخوالد من الإحساء، مما أثار غضب أمكري. وصل العدو إلى الحاير وحاصرها، ولم يكن بداخلها إلا بضع مئات، ينتظرون العون من الله ثم المدد الحربي من ابن سعود، وجاءت الأنباء أن دهام خرج من الرياض يمشي ألهورينا ومعه نحو ألف رجل بسلاح خفيف. جاء رسول يقول للسبعان أن هبة الله أمكري قد تكرم عليهم، بحقن دمائهم ووهب لهم ثلثي أنعامهم، لقاء تقديمهم كمية من الحنطة والشعير وأربعين ألف زر أحمر، فرفضوا ذلك وأن ليس لديهم إلا "تراب في وجهه" فاغتاظ من ذلك الرد القبيح وجهاز لدخول البلدة عنوة. وصلت طلائع الدرعية بأنباء عن شدة مرض الأمير محمد بن سعود، وأن الإمام محمد بن عبد الوهاب قد رتب إرسال أكبر جيش يخرج من الدرعية، به عدة آلاف بقيادة الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود. تسلل إليهم ليلاً من أعدوا خطة لفتح البوابة الشمالية الغربية قبل أذان الفجر، حتى تدخل القوات للمساعدة في صد الهجوم النجراني ثم فك الحصار. كانت خطة بديعة لولا الغدر والخيانة، التي قيل أنها من السبعان المحاصرين في داخل البلدة، لكن الواقع يؤيد أنها من بعض القادمين من الدرعية، حيث عندما اقتربت الكتيبة من البوابة، ظهر لهم كمين من اليامية يترصدون لهم في الظلمة، فتمكنوا من القضاء على عدد منهم بينما قامت ثلة أخرى بالدخول، وقُتل الحراس وكسرت البوابة فاندفعت جموع يام لتتمركز داخل البلدة، ثم توجهت نحوهم حشود غفيرة ملأت المكان، مما دفع جنود الدرعية للتقهقر جهة القبلة، أما قيادتهم من عنزة (عرفج) فقد سارعوا بالفرار في الاتجاه المعاكس، وبدا أنهم يريدون الوصول للسهباء وليس العودة لمقر القيادة. شعر الأمير عبدالعزيز بما جرى لمقدمته، فباشر في الإعداد للهجوم بجحافله لكن طلوع النهار أوضح له صعوبة وضعه، فقد كان العدو يبلغ ثلاثة أمثال قواته، وقد تمكنوا من تطويق حائر سبيع، وأمسكوا بطن الواديين (حنيفة ولحاء) وتمركزوا في أعلى التلال المشرفة عليهما، ورغم ذلك فقد كان معه شجعان انقضوا نحو شمال غرب البلدة ومالوا على العدو ميلاً واحدة فكسروهم، وكان بعض أولئك الجنود يمنيون متخاذلين ربما يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا! وتمكنت قوات ابن سعود من أسر وجرح وقتل عدد منهم، بل دخل البعض للبلدة لنجدة سكانها. لكن قيادة المكرمية قامت بإرسال إشارات صوتية ودخانية، فتقدمت فرقة ذات حماسة عالية تساندها حشود من القحاطين فشنت الكثرة قوات ابن سعود، فسارع عبد العزيز بن محمد بتجميع كتيبته وانهزم مسرعاً صوب الشمال الغربي. قتل العدنانيون العشرات من غزاة البغي والعدوان، واستشهد منهم المئات وأسر منهم نحو ألف، ولم

يتعرض أحد للنساء والأطفال، كما نهبت الأموال والأنعام والنفائس. كانت مقاومة السبعان في الحائر باسلة، بخاصة كتائب صقر وفليحان وجفران ومناحي وحربول وحجاب، بعضهم من البلدة وكثير من سبعين الأفلاج والحريق ورماح، ونفر من شجعان بنو عمهم السهول، وآخرون من نجباء قحاطين السيح والدلم المبعضين لأهل الفتن. لقد دخل القنوط قلوب بعض السبعان لما حل ببلدتهم، حيث لا ترى سوى الخراب ولا تسمع سوى الأنين ولا تشم إلا الغبار والدم والبارود (بودرة نظرون البطاس مع كبريت وفحم) مما جعل القوم يصابون بالغثيان فيقذفون ما في بطونهم، مما يزيد الأسى والحسرة التي تملأ النفوس. رغم أن الملخص هذا لا يتسع للتفصيل، إلا أنه يلزم بيان بعض الجوانب، حيث للأسف قاتل مع المكرمي وقواته كثير من أهل العارض، منهم حشد من بادية سبيع الذين استمروا في ولائهم لابن دواس، نتيجة تنكيل ابن سعود بهم في الحقبة الماضية، ولم يطيعوا إخوانهم السبعان ويغدروا بحليفهم الكريم، كما كان هناك عدد من تميم ومطير بقوا على عهدهم مع رئيس الخرج (العايزي) أما قحاطين الخضرمة فقد كان بعضهم على وفاء بعهدهم مع ابن سعود، ونبذهم للبدع والضلالات وقاتلوا معه حتى حين. لقد استاق المكرمي معه المئات من الأسرى والمنهوبات والدواب من خيل وجمال وبغال وحمير وضأن وماعز، وقد نصحه أهل الرياض بحث المسير في وادي حنيفة شمالاً، حيث خلا من آثار السيول منذ شهور، وسيقوده الوادي الممهد من الحصى والنفائيات نحو الدرعية، وألا يتجه نحو الرياض حيث الطريق منها أقصر لكن به مغرقات تؤخر مسيرة جيشه. عندما وصلوا المصانع (حواجز السيل) غدا الوادي ضحلاً والمسير جهة الغرب، وشاهدوا على بعد منازل منفوحة المعادية لابن سعود فزاد حزنهم، وتحسر بعضهم لما هم فيه من كرب، وقال رجل من قحطان أصهار سبيع، ما الذي جاء بنا لهذا ألا تعلمون أن مبارزة المسلم للمسلم تجعل القاتل والمقتول في النار؟ إن كلا الطرفين يشبهون بعضهم، فهذا الفاطمي يدعي أنه يحارب أخبث البدع والمنكرات من استهزاء بالله وبغض للرسول وآله، مما يخرج من شهادتي التوحيد، وذاك وهابي يكفر من يزور القبور المأمور بزيارتها، فما شأننا بهما ولماذا نشارك في خلافهم؟ قال له قحطاني آخر، إنما النجرانيون جاءوا ليخربوا بلادنا، ونحن ندافع عن دماننا ومالنا وأعراضنا كما أمر النبي، ومن يقتل منا دفاعاً عن النفس فهو شهيد. ثار جدل بينهم قطعه سبيعي متسائلاً هل من يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم؟ ثم توالى السياط عليهم من فرقة الحراسة الجارودية الخبيثة، التي تتعامل مع الأسرى بغلظة وقسوة، وكانوا يأمرورنهم بحث السير هم والدبش المرافقة لاقتراب المغرب، ومنعوه عن صلاة العصر حيث يرون أنها ليست فريضة. انكسر الوادي وعادوا يسرون شمالاً، ثم عاين أحدهم الحبونية على بعد شرقاً، لذا دبوا خطة تسلل أحدهم في

الظلام لمحادثة أحد أعيان سبيع هناك عن أوضاعهم، عاد بعد منتصف الليل بعدم جدوى أي محاولة فرار، مع وعد بأن يسير صباحاً إلى جماعة من السبعين يعملون مع ابن دواس عليهم يتشفعون فيهم، وكان معه طعام ورطب، عندما شاهدته الحرس من الوداعين اندهشوا، فقد اقترب دخول الوسمي حيث لا يوجد في السليل رطب آنذاك، وعندما قالوا لهم أن الله رزقنا، ظن الجارودية أنهم أولياء حيث عقولهم مشبعة بالخزعبلات. عند الظهر وصلوا سرادق كبير ومخيمات عديدة للمقاتلين، تقع جنوب التقاء شعيب صغير مع الوادي، يبدأ من تلال منخفضة مجاورة يسمى "غذوان" وعلى البعد منازل قليلة وزراعات، وقد بنا ابن سعود فيه مرقب مرتفع، عبارة عن قلعة من الحجارة الجيرية وليس الطين، ويوجد فيه عدد من المراقبين والحرس، وهو آخر خطوط الدفاع عن الدرعية التي تبعد مسيرة ساعات قليلة. ظهر من نيران الطبخ وكثرة المعامل أن لديهم وليمة، أما الأسرى فلهم الجوع والفضلات، ثم جاءهم السبيعي بأنهم قد وجدوا عجمي كريم قبل أن يتشفع مع يام لدى المكرمي، الذي يرأس أكثر عشائريهم، وطلب منهم انتقاء أربعة ليصطحبوه للملتقى. ذهب معهم راشد بن ختلان مرتدياً الحلة الجديدة، وبقوا خارج السرادق بعض الوقت حتى أذن لهم بالدخول، حيث وجدوا ثلاثة من كبار العجمان اقتربوا بهم من السيد ثم أمروا بالتوقف، بينما تقدم اليامية حتى غدوا جواره، فتحدثوا عن أنه الحسن ذو القول والفعل الحسن، وأنه ابن هبة الله المحب للبهات، وأنه مكرمي يكرم المستضعفين، وتوسلوا إليه أن يقبل شفاعتهم فيهم ويفك أسرهم لقاء مئة أو فداء. جاء رجل وأسر إليه بكلمات، فسمعوا أحد الجالسين جواره يقول إن السبعان قد ردوا بجفاء على عرضه لهم، لما كانوا خلف سور الحائر وقد نالوا ما يستحقون! حاول العجمان التعذر بأساليب شتى، حتى نادى أحد الجلوس بصوت جهوري "تأبى البجاجة أن تترك أهلها" فأشار له السيد بيده فصمت الحضور، وبدأ يتحدث بصوت رقيق وكلمات فصحة بلهجة يمانية خفيفة، فبدأ بحمد الله والثناء عليه ونزه أسمائه الحسنى وصفاته المثلى، ثم صلى وسلم على جده النبي وابنته فاطمة وترضى على جده إسماعيل بن جعفر الصادق، بعد ذلك بدأ أنه يحدث رفاقه فقال إن نجد أرض قحطانية منذ قديم الأزل وتتبع مملكة كاهل وكندة، وأشار لمعلقة امرؤ ألقيس في الجاهلية، وقبلها قوم تبع في الزمن البائد، ثم حادثة سد مأرب حتى ذلك الزمن. بعدها أكد للجميع أنه ما جاء لهذه الأرض يريد علواً أو مالاً أو فساداً، إنما جاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة البدع الخبيثة ونشر التوحيد الصحيح. واسترسل بعد ذلك بالقول إنه سبق أن نصح السعودي والوهابي في الدرعية، بوجوب نبذ البدع المنكرة مثل الاستهزاء بأسماء الله الحسنى وصفاته المثلى، مثل تمثيلهم لاستوائه على العرش، أو نزوله للسماء الدنيا يعرج لوجع في ركبته، تعالى الله عنها،

كما سبوا نبي الله ووصفوه أنه "ميت متعفن" لا ينفع ولا يشفع، وقد نهى سبحانه أن يقال لشهداء أحد "أموات" وبعضهم كان سكران، ثم يكفرون من ذهب لزيارة قبره الشريف، وقد قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فهل تزار قبور القتلة واللصوص والخمارين والمجهولين فقط؟ وبدعة أخرى هي امتحان الإيمان بالربوبية، لأجل تكفير المسلمين ثم سرقة مالهم أو قتلهم وقد قال جدي "هل شققت صدره" لزيد. إن ذلك يؤدي لسقوط شهادتي التوحيد التي تخرج من الملة، فما بالك بهم لا يحسنون الصلاة ولا يؤدون الزكاة للخليفة، فهل مثلهم مسلم؟ لقد سبق وكتبنا لهم بنبذ نواقض التوحيد، والكف عن تكفير أهل القبلة القائمين بالشهادتين والمؤدون للأركان الأربعة، وردوا علينا أنهم سيكفون عن ذلك، ثم تبين كذبهم وتكرر منهم مرات، ومنذ شهور كفروا وقتلوا وسرقوا بعض عشائرننا ونصحناهم بالحسنى، لكنهم أبوا قائلين إنهم أولوا قوة وبأس شديد، وظنوا أن حصونهم مانعتهم من غضب الله. لذا جئنا هنا لنكرر عليهم الموعظة، فإن انتهوا فإخواننا في الدين، وإن أبوا فسنقاتل أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم. ثم قال إنني ما جئت للمال أو الفساد أو السلطة، كما أنني لا أنشر البغضاء بين أهل القبلة، ليعودوا كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض، بل ترون رفاقي من أهل السنة والزيدية والإثني عشرية، وغيرهم ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة.. انتهز أحد العجمان لحظة سكون هديره، وعاد لموضوع الأسرى مثنياً على أقوال وأفعال السيد المتقيدة بالقرآن والحديث، ثم توسل النظر في شأن الأسرى. صاح الرجل منادياً الجارودي، قائد فوج القسوة والغلظة فجاءه مهرولا منحنياً، وأمره أن يقضي عليهم مقدار الفداء، فحكم بمائة ألف زر أحمر ومائتي ألف أبيض وثلاثمائة ألف أزرق، فرد أحد اليامية أن هذا كثير وهم بسطاء، ولا حاجة للأبيض والأزرق ويكفي الأحمر، فالتفت إلى شيخ عشيرة أعراب سبيع مبيها تقديره، ورد عليه أنه أهل للمكارم إذا يرى إسقاط النصف. عندما حدق الحسن في رئيس الرياض، قال أقترح أن تكون اثني عشرة ألف أحمر وعساهم يتمكنون، فوافق على ذلك بشرط أن يضمنهم دهام للسداد قبل رمضان.

في الليلة التالية وقد اجتمع الخثالين مع بقية السبعان حول النار، حيث أوشك سهيل على الانصراف ويبرد الليل في هضبة نجد، كانوا يتداولون سبل تقسيم عبء الفدية على كل جماعة، واقترح البعض التريث في الذهاب للدعية لطلب العانية، حتى تتبين خاتمة هذه الحرب. وعند منتصف الليل سمعوا إطلاق نيران كثيف، لكنهم لم يتجهوا نحوه خوفاً من سوء الظن فيهم من الطرفين، وعند الفجر علموا أن نحو ثلاثين من المسلحين داخل برج المراقبة، قد شنوا هجمة مباغته على القوات النجرانية قرب بوابة حصنهم. وأسروا بعضهم وسحبوهم للدخل، ولما انتبه رفاقهم بدأوا إطلاق نار عشوائي في ظلمة الليل، مما أسفر عن جرح ومقتل البعض. وقد كان

مقاتلو البرج على دراية بأرضهم، وفتيل بنادقهم كان من نوعية جيدة، من قطن مشبع بالمشعل، أما العدو ففتيلهم صوف يتأثر بالرطوبة وينطفئ قبل وصول اللهب لغرفة البارود، كما أن الزناد لديهم رديء، والحق أن ابن سعود يجتهد في توفير أفضل السلاح والذخيرة لرجاله. عند الصباح فوجئوا بأعمال نقض الخيام، واستعدادات للرحيل على عجل وارتباك، وشاعت أقوال حول سبب ذلك وما إذا حانت ساعة الهجوم على الدرعية؟ تبين لهم لاحقاً أن السيد منذ غروب الشمس قد أجرى "حضرة" استدعى لها أسياده من شياطين الجن، وأعد لهم لذيذ الطعام وأطياب الحشائش! وغيرها من "قوت الأتقياء" كما يسميها، وفي الختام نصحه أسياده بسرعة مغادرة تلك الأرض الخبيثة. بينما أشاع آخرون خبر حدوث اتفاق بين الدرعية والمكرمي، استلم بموجبه كمية كبيرة من الذهب لقاء عودته لنجران، وقد هرول إليه قادة الرياض والخرج يحثونه للانتظار وصول العريعر من الإحساء، مصحوباً بمدافع البصرة. وأوضحوا أن تأخره في القدوم بسبب وعورة الطريق عبر السهباء، مما أدى إلى توجهه شمالاً نحو الدهناء، وتوقعوا وصوله إلى سدير بعد أيام، ثم يهاجم الدرعية من شمالها بينما يتولى المكرمي الجبهة الجنوبية، لكن الرجل كان قد عقد العزم على الرحيل، وحث عسكره لسرعة ذلك في نفس اليوم. قرر السبعان سرعة مغادرة قرية غدوانة قبل عودة المنازلة، وتوجهت أربع فرق مع دوابها نحو الحاير والحريق والدلم وليلي، والخامسة نحو الدرعية حيث التقت مع القادة، الذين حثوهم للصمود لمواجهة خوالد الإحساء، فشرحوا لهم أن دهام لم يكفلهم إلا بعد أخذ العهد عليهم أن لا يقاتلوه، وقد أعطوه ذلك شريطة ألا يطلب منهم القتال معه، ثم أوضحوا أنه قد كفاهم ما أصابهم بعد انسحاب الأمير عبدالعزيز من الحائر، قبلوا ذلك بامتعاض ومنحومهم مائة مثقال تعادل نحو ألف زر فرفضوها حتى الحوا عليهم. عند مغادرتهم شاهدوا جموع ابن عريعر قادمة رفقة حشد ضخم من أهل حرمة والعودة وخرّيق سدير (بالتصغير) يجرون المدافع لدك أسوار الدرعية. ويساندتهم جنود من الرياض والخرج، وعاد الخثالين لبلدتهم سائلين الله السلامة، حيث لقوا كثيراً من المواساة وشيء من السخرية. ثم جاءهم نباء وفاة أمير الدرعية محمد بن سعود بن محمد بن مقرن، وتولي ابنه عبدالعزيز الإمارة، ولما حادثوا أعيان البلدة للذهاب للمبايعة رفضوا، متذرعين بالاكْتفاء بما أصابهم من المريديّة في العشرين سنة الماضية لآبد من وقفة موجزة حول بعض ما أوردناه عن ذلك الحدث الجسيم، فأوله أذكر أن هذه الرواية سمعتها في مجلس والدي رحمه الله عام 1378هـ، حيث كان هناك جدل ونقاش مستفيض حول أمور تاريخية، عن تلك الحادثة في وقت مرور قرنين عليها. مازال الناس يتوجعون لما أصاب أسلافهم فيها، لذا فهناك بعض التضارب في الأقوال التي لم يكن أبي يميل لأي منها، بل يركن لقول "الله أعلم" بخاصة أنه في تلك الفترة

أعيدت طباعة تاريخ الريحاني (بعد موته) والتي يقال أن الملك عبدالعزيز قد أملى عليه بعض منها، واقتبس البعض الآخر من العاملين في الديوان. كما تسربت أجزاء من تاريخ الزركلي، الذي عارضه الملك سعود منذ كُتِبَ في ذكرى مرور خمسين سنة على فتح الرياض. والأهم هو الحملة الشنعاء التي شنّها جمال عبد الناصر ضد المملكة آنذاك، واستند مؤيدوه في الطعن علينا بكتب التاريخ القديمة عن الدولة السعودية الأولى، مثل الغنام والبشر والفاخري وغيرهم. لذا قرر سعود وفيصل تفتيح تلك المراجع وتهذيبها، كي لا يستند إليها المغرضون. فأوصى الملك سعود مفتي نجد محمد بن إبراهيم آل الشيخ برعاية الأمر، فأوكل لبعض أبنائه للقيام به، أما ولي العهد (فيصل) فعهد لبعض ذرية جده لأمه بذلك، وكان البعض منهم قد ارتحل للطائف لظروف معينة، وأبي يعز الكثير منهم ويزورهم كما شاهدت بعضهم في مجلس أبي، أو في مقر عمله بأمانة العاصمة أو اللجنة التنفيذية لتوسعة الحرم، أما الأمير سعود بن هذلول (القصيم) رحمه الله فكان يضع كتاب موجز مفيد عن التاريخ السعودي. وقد حذر والدي من تغيير المحتويات لوجود نسخ مطبوعة أو مخطوطة لدى مراكز علمية في بريطانيا وألمانيا، مما قد يؤدي للإحراج لاحقاً، مبيناً أن التبرير أقل ضرراً من التغيير. أما الفوران الذي يحدث في المجالس عند ذكر ألمكرمي، والنقد الذي يوجه له ممن تأذى أسلافه من غزوته الغاشمة للعارض، فقد كان لا يرضي والدي وبخاصة ما يتجاوز التشكي من الفكر أو الفعل ليتوجه نحو الشخصية، مثل قول أحدهم أن المكرمي معتوه لكثرة تعاطيه المقترات وشغفه بالشعوذة، فقد ذكر أبي أن عمه زيد الكبير نقل عن جده أن الرجل كان يتسم بالرزانة وحسن المنطق وعمق الفكر. أما مسألة تعذيب الأسرى فقد كانت من عمل الجارودي الخبيث، وأثوه أنه في إحدى الجلسات حضر الكعكي (شيخ الفرانة) وقد تأذى من سباب الجارودي، الذي أفادهم أن صهر أحد معارفه نسبه كذلك لكنه على المذهب السني، فتدخل أحد اليمينيين قائلاً إنهم ينتسبون لقرية جرداء بلا ماء ولا شجر تسمى جارودة، يسكنها أخلاط من مذاهب وقبائل مختلفة. وقد كانت المنطقة تموج بالثوران الناصري، وقد برز فيها جماعة اثنا عشرية منحرفة تبغض الإسلام والعروبة، من سكان قرية تسمى "حوثة" وهم أهل الشر والفساد والعدوان الآن. وتتويجه آخر عن عملة الزر، حيث وضح لي يرحمه الله أنها مثل القرش الصغير، قطرهما نحو 12 ملي وتزن 3 قرامات، والأحمر منها ذهب غير خالص، والأبيض فضة مخلوطة أما الأزرق فنحاس ونيكل وحديد، وهي تجلب من بلاد العجم ويبدو أنها تضرب في الهند. كما نشير أن البعض ناقشوا مسألة انتساب ألمكرمي للعترة الشريفة، وهو ما كان أبي يكره الخوض فيه، وقد حدثني بعد خمس عشرة سنة عن كثير من أمور غزوة ألمكرمي الأولى وسنفضل ذلك لاحقاً في صلب السيرة وليس في الملخص.

في مستهل ثمانينات القرن (12هـ) كانت الدرعية قد تمكنت من استعادة دورها، بعد انصراف الكثير عنها في أعقاب وفاة محمد بن سعود، وآل خثلان في بلدتهم ينهون عن المنكر والفواحش والإسفاف بالموعظة الحسنة، ويؤدون فرائضهم ويتابعون تجارتهم مع البحرين ومسقط، ويرعون زراعاتهم ومواشيهم. ثم في ليلة مشؤومه غدر بعض من ذرية رشيد بن حمد ببني عمهم ذرية عثمان بن حمد وكلهم هزازنة، حيث أدوا البعض منهم وصادروا أملاك آخرين، ونفوا خارج الحريق من لم يقبل العيش في الهوان، بعد أن استولوا على مشيخة الجلالية وأتباعهم من سدير. لقد استاء الخثالين من تلك العملية، وكانوا يرون حل الأمور بالتي هي أحسن، بدل اللجوء للعنف لكن ذلك ما اختارته الكثرة. بعد ذلك أخذ نفوذ الدرعية يتزايد، حيث قام الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود، بوضع خطة الزحف التدريجي المكثف على القرى المجاورة للرياض، بدلا من هجمات عشوائية متناثرة، ساعة في الخرج وأخرى في سدير وثالثة في القصيم، وأدى التركيز على منطقة واحدة لنتائج ايجابية خاصة بعد أن دخل آل مزروع (رؤساء منفوحة) تحت لواء ابن سعود. في ذات صباح جاء نبأ مغادرة دهام الرياض (نحشة) لا عودة بعدها، وترك الخيار لمن يريد اللحاق به أو البقاء تحت حكم الدرعية، لكنه أساء اختيار الملاذ، فعندما وصل الدلم عند حليفه العايزي، لم يجد سوى التوبيخ العنيف لفراره، فقد كانت الرياض حصن الدفاع الأول عن الخرج، فلم يجد بدأ من التوجه نحو الحليف الآخر في الأحساء، لكن يد الغدر الخسيسة طارده وقاتلته ونهبت ماله، بعد أن أمضى أكثر من ربع قرن يدافع عن إمارته. وقبل إقفال فصل ابن دواس والعبرة منه، تلزم الإشارة أنه لم يكن شراً بالكامل، فقد سمعت في المجلس من يثنون على بعض خصاله، وأهمها عدم حبه لإيقاع الأذى بالأبرياء، رغم قسوته على الأعداء، إضافة لكرمه وتبسمه وشجاعته، وقد كان من المحبين لقبيلة سبيع ويصفح عن تجاوزات بعضهم، ولا ينسون شفاعته لدى المكرمي وإطلاق أسراهم وكفالة سدادهم للفدية وحط جزء منها عنهم. وتحدث أحدهم أن جده قد عاب عليه مهادنة الدرعية ثم الإنتكاص بلؤم عن ذلك، فرد بأن عهده معهم كان بشرط وقف التكفير بالشبهة ثم السرقة والقتل، وهم الذين ينكلون ميثاقهم، ثم أنشد: -

إذا المرء لم يدنس باللؤم عرضه ----- فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ----- فليس إلى حسن الثناء سبيل

سلوا الناس عنا وعنهم ----- فليس سواء عالم وجهول

وعند وصوله للدلم عاب عليه البعض سوء تدبيره فأنشد من اللامية العجمية: -

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ ----- وحلية الفضل زانتني لدى العطلِ
حب السلامة يثني هم صاحبه ----- عن المعالي ويغري المرء بالكسل
أعلل النفس بالآمال أرقبها ----- ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
أعدى عدوك من وثقت به ----- فحاذر الناس واصحبهم على دخل

لقد سمعت في المجلس آراء متناقضة عنه، فمن قائل إنه مرتد كافر وغيره وسمه بأنه مجاهد وبر طاهر، كما شكك البعض في نسبه ونواياه، وليست هذه السيرة معرض تقييم التاريخ أو الناس، وإنما استخلاص العبرة وإن فيها "لذكرى لمن ألقى السمع وهو شهيد" نسأله سبحانه أن يجعلنا كذلك، والله غالب على أمره لكن أكثر الناس لا يعلمون. وقد قيل إن أقدر الحروب هي الحرب الأهلية، أو تلك القائمة على الفكر! وهل أخبث من القتال بين منفوحة والدرعية التي قتل فيها آلاف المسلمين؟ وغدتا الآن مجرد أحياء من عاصمة مملكة صقر الجزيرة رحمه الله، ولا أعاد الشر على وطننا.

عندما بلغ أهل الحريق نباء دخول الرياض في حركة الإصلاح، دعا آل خثلان أعيان الحريق ممن لم يتجاوبوا مع الدعوات السابقة لسرعة التوجه للدرعية، حيث "جاءت الصاخة" وحذروا أنه خلال شهور قليلة ستسقط الخرج، وقد لا ينفع العمل بعد ذلك، لذا أوصوا بسرعة المبادرة لنبذ البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات. لكن بعد عودتهم لوحظ أن عدد غير قليل ما زالوا في ريبة ووجل، وكأنهم قد عاهدوا "على حرف" فإن أصابتهم فتنة انقلبوا، وإن أصابهم خير اطمأنوا به. أما في الدلم فقد شعر العايذي بقرب الزحف نحوه لذا سارع للاستعانة بالعريعر، الذي أوصى بالعودة نحو مكرمي نجران، ولما أصبح آل خثلان في حل من عهدهم السابق مع دهام، بعد أن انتقل لرحمة ربه، وذلك بأن لا يقاتلوا حلفائه، فقد سارعوا بالتوجه للدرعية لتجديد الميثاق مع الأمير عبد العزيز والشيخ ابن عبد الوهاب، وطلبوا تقوية تحصينات الفرع والحاير. ثم أقبل المكرمي في جحفل عظيم، وقد تقدم به العمر وتكالبت عليه أمراض الشيخوخة، إلا أن جموع الجارودية الخبيثة الحوثية (رافضة اثني عشرية) المبغضة لأهل السنة تولت قيادة الحشود، التي اتجهت مباشرة نحو الحاير، وأخذت تدك الحوائط وتقطع النخل وتحرق. عندما لم تصل تعزيزات من الدرعية، كان السبعان قد أخذوا العبرة مما جرى قبل عشر سنوات، لذا قبلوا عرض الإسماعيلي بأن يغادر أرضهم لقاء كمية من الحنطة والعلف والملابس، وبعض الإبل والماعر وقليل من الذهب، وقد نصحه أهل الخرج من قحطان ألا يتجه شمالاً، حيث إن حجر

اليمامة في قبضة ابن سعود، لذا سار غرباً ثم انحرف تجاه الشمال فجعل طويق على يمينه، وحاصر ضمراً حيث فيها أخلاط من سبيع والعنقر وقحطان والعتقاء، حتى دحره الله. كانت العارض آنذاك ما زالت في فوضى ورعب، حيث الغالبية تبحث عن "النفوذ والنقود" بشتى السبل، مثل نظام "الخوة" أو الباجة والمكوس، ويخرج زمر من السفهاء في ظلمة الليل لتسطو على مواشي الجيران، وهي الحنشلة بمعنى مصادرة (تأميم) حلال الكفار! أما ابن زامل رئيس الدلم (العايزي) فقد عمد إلى تعزيز تحصينات الخرج، بالتعاون مع بجادية اليمامة (القرية) وتميية الحوطة وقحاطين السيح، وغدا القوة المهيمنة على المنطقة في مطلع التسعينات. لكن الدرعية لم تتركه حيث أرسلت له حملات متتابعة، ظهر فيها ذلك الطفل الرقيق وغير المهذب، الذي رآه الخثالين مع جده محمد بن سعود في الدرعية قبل عشرين سنة، حيث غدا رجل ضخم قوي البنية ذو شوارب مقتولة، يتعامل بسطوة وقسوة، لا يتورع عن سفك الدماء المسلمة، حيث أخذ يقود الهجمات بنفسه، بعد أن كان يشارك فيها تحت قيادة والده أو عمه وأقاربه. كان الأمير سعود بن عبد العزيز شجاعاً يقاتل في المقدمة، تحيطه كوكبة من الفرسان الأشداء، ومن ورائهم حشد مدرع من الجنود للدفاع، وتأمين سبل المغادرة عند الاقتضاء، وإذا حاصر بلدة لم ترضخ لرغبته، باشر في مصادرة ما في المراعي والمفالي، ثم يتجه لقطع الأشجار وبعدها يحرق المنازل، متذرعاً بفعل النبي مع عبدة الأصنام، ناسياً أن هؤلاء يُصلون ويُزكون ويصومون ولا يعكفون على التماثيل، وغير عابئ بوجوب النصح بالحكمة والموعظة الحسنة لنبذ البدع والفساد. وصل رهط من آل خثلان للدرعية، فرأوا مظاهر المعمار والثراء الحديث، وأفادوهم أن الأمير عبد العزيز بن محمد عليه أثر الحمى، وأن يقابلوا ولده سعود فكادوا يرجعون، لكن أحد العريينات المقربين دعاهم لصلاة العصر في المسجد الجديد الفخم، ثم يتجه معهم لمجلس الشيخ محمد بن عبدالوهاب لبحث شأنهم، سلموا على الأمير بعد الفريضة وبدت عليه آثار المرض، لكنه دعاهم إلى قصره فاعتذروا. عند الشيخ وجدوا أخو الأمير (عبد الله بن محمد) وولده سعود، ولفيف من الزوار وذوي الحاجات، عندما اقتربوا منه وناجوه بعيداً عن الزحام بدا كأنه عاتب على عهدهم مع دهام، وقبل إيضاحهم للأمر، إلا أنه حثهم بحزم لوجوب محاربة "الأوثان" في منطقتهم، ووجوب استخدام القوة لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وأن يبدؤوا بالأقربين! تدخل الأمير سعود بغلظة في ذلك، غير عابئ بحضور جده وعمه، إلا أنهم لم يعبأوا به واستمروا في حديثهم مع الشيخ، الذي أشار لوجود "فاضل وتاج وشمسان" عندهم ولزوم ذبحهم؟ لأن في ذلك رضا الله. وقطع المحادثة سعود بقوله إنه ما زال في حريق نعام فواحش وفجور، وفي زميقة قبة كبيرة للكفار فيها أوثان، وبدا أن عمه لم يأنس بأسلوبه الفظ لذا أعرضت عنه الجماعة.

عادوا لنصح أهلهم وجيرانهم في بلدتهم لنبذ المنكرات، التي يشهد كل منصف أنها قد تناقست كثيراً واستترت في السنوات الماضية، وقال لهم البعض أن المدينة النبوية لم تسلم حتى في عصره من بعض الزنا والخمر، أو كما يسميهما الفسفة "الأطيبان" نسأله العافية. توجهت مجموعة من آل خثلان يصاحبهم سبيعي من الخرج نحو زميقة، فوجدوا مسجد صغير متواري عن النظر، وخلف السكة الشرقية له يوجد بناء عليه قبة خضراء يعلوها عمود به مصباح، وتوجد شجيرات متناثرة في الجهتين الشمالية والجنوبية، أما ناحية المحراب (قبلة) فتوجد غرف سكنية تبعد أكثر من عشرة أذرع بينها ممشى ضيق. ولما صاح رفيقهم خرج من إحداها رجل عليه عمامة سوداء، يرتدي ملابس صوفية رغم عدم برودة الجو، ولاحظوا على مقربة شخص يسلم رأس من الماعز، رحب بهم الرجل الذي انتسب لإحدى الأسر التي تسكن الحريق. ثم سأله عما إذا كان هذا هو المكان الذي وضعت فيه أجزاء من الكعبة المشرفة زمن القرامطة؟ فأجابهم أنه لا يعرف "كعيبينة" وإنما سمع عن إحضار الحجر الأسود للخرج قبل ألف سنة في طريقه إلى الجشة، وأردف بالقول إن هذا مرقد أحد الصالحين من ذرية السيدة فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، ويأتي المسلمون لزيارته عملاً بقوله كنت نهيتكم عن زيارة القبور "فزوروها" وهو من "المودة في القربى" الواردة في القرآن والواجبة على صالح المسلمين. ثم سار معهم على مهل كأن به عرج ويتظاهر بضعف البصر، ويتكلم بخنة كريهة في صوته ادعى أنها بسبب سحر عمل له لجمال قراءته للمصحف. وعند الباب شرح لهم قليلاً من تاريخ المكان، الذي ادعى أنه بني زمن حكم الأشراف لليمامة قبل ألف سنة، فتبسم جد والدي (الأكبر) عندما لمزه ابن عمه عمر هامساً إن صاحبنا لا يعرف سوى (الألف) ولاحظوا قبل دخولهم مجموعة من النساء على مبعدة يتجادلون مع بعض العاملين. كان المكان حجرة متسعة تعج بدخان البخور الجيد، في وسطها أسفل القبة سرير (نعش) يرتفع عن الأرض نحو نصف قامة، ومغطى بديباج أخضر سميك، زينت أطرافه حواف من القטיפه والقصب الموشى. من جهة الغرب يرتفع الغطاء عالياً بفعل عامود مخفي أسفله، يسحبه نحو السقف طناب من الليف الأبيض، ويحيطه جدار يرتفع نحو ثلاثة أذرع وبينهما ممشى ضيق. في الركن الشرقي الجنوبي للجدار توجد بيضة نحاسية كبيرة (نعامة) بدت متهالكة من المسح، وبين الجدار الصغير وحواف المبنى المستطيل ممر سعته سبعة أذرع، رصفت أرضيته بالحجارة المحلية المتأكلة من طرق الأقدام. الحوائط والسقف منقوشة عليها كتابات بسيطة وإرشادات، مع رسوم لنباتات وآيات واسم الجلالة والمصطفى والخلفاء وشهداء حرب مسيلمة. مد أحدهم ذراعه عبر الممشى ليعرف ما يوجد أسفل الغطاء، فمنعه أحد الحارسين من الداخل، فقال لهم ناظر المدفن أن يدعوه يتبرك باللمس، حيث هذا مرقد

الشريف الأخضر أحد أولياء الله الصالحين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، شرح له ابن خثلان عدم جواز ذلك، فدعاهم للخروج والتوجه للمجلس لعدم قبوله للكلام في المكان هذا. أحضر العمال ماء بارد وقهوة وتمر وعنب، فقال لا بد أنكم ذهبتم للدرعية، ولستم أول من يرسلون إلينا ليضلونا عن الحق، ويجعلونا ندخل في مذاهب الخوارج والباطنية الفاسدة، فنحن بفضل الله على الكتاب والسنة وهم على زيغ وباطل، وزيارة القبور واجبة للرجال والنساء، وقد نسخ المعصوم النهي السابق بأمره "فزوروها" وثبت لدينا أنه زار قبر أمه، وقد ماتت قبل البعثة وهي من أهل "الفترة" وهو يتقلب في الساجدين عليه الصلاة والسلام. والمساجد التي تشد لها الرحال فيها قبور إسماعيل ومحمد وسليمان عليهم السلام، ونهى من يزور المكان عن رفع الصوت أو أي عمل منكر، وإمام الفقهاء الشافعي كان يزور قبر الإمام الأعظم (أبو حنيفة) كل جمعة ويتبرك بذلك، رد عليه أحدهم أنه لما ذهب لمصر ورأى المنكرات كف عن زيارة القبور وغير فتواه. لم يدعهم يكملون، بل صاح بصوته الكريه، إن البدع الفاسدة عند صاحبكم ومشايخه مثل ابن تيمية، الذين جعلوا الله عدة آلهة فهناك الرب، والرحمن، والعزيز، والعليم! وسبوه بالقول إنه ينزل من السماء كما ينزل أحدهم من المنبر بوجع في ركبته، وأن يداه بها أصابع يقص أطرافها ضحى كل جمعة. كما سبوا النبي لأنه "ميت ميت" لا ينفع أحد، بل نعالهم تنفعهم أما الميت فلا، كما استهزئوا بخلفائه وصحابته، وأحرقوا كتب الفقهاء مثل شرح البخاري وصحيح مسلم، ويتتبعون الأحاديث الضعيفة لدى البيهقي والبخاري وابن ماجه ليجدوا ما يكفروا به صالح المسلمين. واسألوا ابن عبد الوهاب لماذا سب أبوه، ولماذا سجن أخوه الأكبر ويعذبه منذ سنين في الدرعية، هل لأنهما قالوا له في صغره إنك مبير تريد إفساد الدين فلا كثر الله في الإسلام أمثالك، ولماذا قتل صهره المعمر وهو يصلي؟ لجموا غيظهم فقد جاءوا لغاية فاضلة وقد سمعوا الكثير من هذه الترهات في مجالس الدلم والرياض، أما المحمدي فقد نهاه عن الحدة مبيناً عدم الحاجة لأقوال لم يأتوا من سفر بعيد ليسمعوها، كما علينا إكرامهم لقدمهم علينا وقد أعدنا لهم الطعام وأنت من المدعويين، فهدأت نفسه وقال، بل نحن أعدنا ذلك وسبقناكم. ثم سارع بالقول إنه لاحظ تفتيشهم عن أي مخالفة شرعية، وأنهم يتطلعون في علامات الأرض ليروا إذا كنا نسمح بالطواف حول المرقد سبع مرات مثل الكعبة، كما أشاع الزنادقة عنا زوراً. ولم تلاحظوا العلامة الحمراء التي وضعناها لنرشد الزوار لموضع الدعاء، بحيث تكون القبلة أمامهم والقبر الشريف على يسارهم، كما أفتى به ابن حنبل الذي يدعون توقيره وهم يخالفونه. قالوا له أنهم لم يحضروا للتفتيش أو التحسس ولا التجسس، بل يريدون مقابلة بعض من يعمل هنا مثل فاضل وتاج وشمسان، ورد بأن لا أحد عندهم منهم، وما لدينا هم الحرس والعمال فقط. وبين فترة

وأخرى يأتي بعض المعالجين، فهناك بدوي من الهواجر ماهر في تجبير الكسور، ولديه غرفة خاصة إذا لكم حاجة معه، وأشار نحو الغرب بإصبعه، ولدينا غرف أخرى فيها مداواة بالكي أو الحجاماة أو المروخ (تدليك) كما يوجد علاج بالأعشاب الطبية والدهون، في غرف منعزلة ولا يختلط أحد بالنساء إلا مع ذي محرم. لكنه استأنف حذراً بالقول إن هناك بعض الطبيين، مثل العيدروس وهو من العترة النبوية، ممن يرى فيهم الناس البركة، يأتون لليمامة بين فترة وأخرى ويرقون الناس بالقرآن الذي فيه شفاء لما في الصدور، أو يقرأون على شراب العسل الذي فيه شفاء للناس بنص كتاب الله، أو على زيت الزيتون من الأشجار التي حول بيت المقدس (الأقصى) الذي بارك الله حوله، أو من الوادي المقدس في طور سينين. ولما قاطعه أحد الجماعة متسانلاً عن كنه تلك البركات؟ رد بالقول إن لديهم شمال المكان أشجار زيتون من الأرض التي ورد في القرآن أنها مباركة، وأرسل إبراهيم ولوط عليهما السلام للسكن فيها، ثم كثر وجهه قائلاً إلا إذا كنتم تتبعون الزنادقة الذين يجحدون التبرك حتى في رسول الله، وقد ثبت أن الصحابة يتبركون بشعرة رسول الله في كفنهم، فهل الشعرة تدخلهم الجنة أو أنهم مشركون. كما كان الصحابة يتبركون بعم رسول الله، بل وبمكان وطء قدميه كما في مصلى "عتبان" والرسول يتبرك بلعق أصابعه، لكن أهل البدع الفاسدة ينكرون ذلك، كما ينكرون شفاعته والصالحين من الأولياء التابعين لسنته. استفسروا عن الأموال التي تجبى من الهدايا التي يقدمها زوار المدفن، غضب بشدة قائلاً هل تستحقون شيء منها، فلما حاولوا إيضاح أغراضهم بالحسنى زاد سخطه، وقال نحن لا نتلقى أمر ولا نهي إلا من ولي الأمر ابن زامل فذهبوا له في دار الأمانة، ردوا عليه بحدة أنه من الذين "يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا" ثم قاموا سراعاً وقال أحدهم "سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين" فتمادي في بذائه ونادى على خادمه بإلغاء الغداء.

أمضى آل ختلان الأشهر التالية في بلدتهم، يتابعون تجارتهم وزراعتهم وأنعامهم، مع استمرارهم في النهي عن المنكرات بالموعظة الحسنة، وتردهم من الدرعية رسل تحث على سرعة العمل على إزالة فساد العايزي وبدعه، والمشاركة مع الآخرين في دعم الهجمات المتفرقة، التي تصل من الشمال وتهدف لسلب الممتلكات والتعدي على من لم يؤيدوا حركة الإصلاح. في منتصف ذلك العقد تيقنت الدرعية بعدم جدوى الهجمات العشوائية المتناثرة، على الخرج وبعض قرى القصيم وتخوم الأحساء، وقرروا أن الأفضل حماية ظهرهم بإتمام السيطرة على الدلم، لكن أنى ذلك وهي مدعومة من وكيل ولاية اسطنبول (العريعر) لذا تقرر تركيز الهجمات عليها. ثم عقد آل ختلان العزم على الذهاب مع بعض الأخيار لأمير الخرج لبحث الوضع، عارضهم الكثير بعضهم متذرعاً بعدم جدوى الحديث معه حيث نقض هدنته مع الدرعية ولا يقبل أي حديث

لإعادتها، بل يشك في نوايا كل من يحدثه في ذلك، وآخرون حذروا من سطوته وخطرسته بعد أن تلقى دعم قوي مؤخراً من الإحساء. رغم ذلك توجه الجمع للدلم، فيهم سبعان الفُرع والأفلاج والحاير، ولما علم أنهم قادمون للشكوى من ضريح زميقة، أخرجهم لحين انصراف القوم والتفاهم مع نفر قليل من أقاربه وجنوده، حيث بين لهم تقديره لطريقتهم في الأمر بالمعروف بأسلوب غير منكر، ونبههم أن في بلداتهم بعض الفواحش والإباحية عليهم نبذها، ولما حادثوه عن القبر قاطعهم بالقول أنه لا يقبل من أحد تحت ولايته مخالفة الشرع، وكل أهل السنة يعلمون استحباب زيارة القبور والسلام على أهلها، وكان عليه الصلاة والسلام يركب من المدينة ليذهب إلى مقبرة أحد ليسلم على أهلها، وقد نهاه ربه عن القيام على قبور المنافقين مما يعنى أن القيام على قبور الصالحين مندوب، بل ووضع أجزاء من الشجر عليها مثل الغصن أو السعف أو الزهر، لذلك فهو مستعد لمناظرة أي مخالفة شرعية، أما القول بتحريم زيارة القبور قطعياً، أو بعثرة رفات الموتى كما يدعو أهل الدرعية فهذا مرفوض، وتساءل إذا كانوا قد وجدوا هناك عراف أو من يضرب الرمل أو يخط بالحصى أو يدعي كشف الحجب؟ ثم قال إن أهل الزيغ والضلال يظن كل منهم أنه أوتي "صحفاً منشرة" وقد افسدوا الإسلام بعدة أمور فيدعون أنهم أهل التوحيد، وبدعة أعمال الله، أو الرب، أو الرحمن، أو العزيز، أو الناس مردودة عليهم. فهي شرك أكبر لا يدب مثل النملة، فأعمال المعبود والعباد كلها لله وحده، فالخالق هو الله وهو الرب والعزيز والعليم بنص القرآن، وقال سبحانه جواباً للكفار "من رب السنوات والأرض قل الله" والدعاء لله وللرب وللرحمن الذي له الأسماء الحسنى والصفات المثلى. كما يزعمون أنهم على نهج السلف وهم يكذبونهم، بالقول إن لا أحد يعرف الكتاب والسنة إلا مشايخهم المقدسين في القرن الثامن الشرير، فهل بقي المسلمون سبعة قرون يجهلون دينهم، بما في ذلك قرون الخير والتابعين والصحابة؟ وخالفوا شيخهم الذي أفتى لعساكر المماليك، أن من نزع يداً من طاعة ولي الأمر فقد نزع ربة الإسلام، وغداً كافراً وهم فعلوا ذلك! ثم إنهم يسبون الخلفاء الراشدين الأربعة فهل لديهم سلف أصلح؟ ويطعنون في علماء المذاهب الأربعة بما فيهم ابن حنبل، الذي رفضوا ربع أحاديث مسنده، وأحرقوا صحيح الإمام مسلم وكفروا بالإمام البخاري ملفقين عليه أنه خالف رأي الحنابلة في "خلق القرآن" وغير ذلك من أباطيل. بل إن شيخ الدرعية يدعي أن لديه حوزة العلم "اللدني" وأن من أطاعه فقد أطاع الله، وأنه يدرك ما لا يعلمه الأنبياء والأولياء والصالحون وهو وحده يعرف التأويل، وبذلك يتقمص ذات الله (حلول أو اتحاد) كما ادعى بعض غلاة الصوفية، وأفسد عقيدة الولاء والبراء، فجعلها مولاته وحده وليس صالح المؤمنين، ولما نصحناهم إذا بهم "يلفون ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر" صريحة. ثم أضاف بأن أخبت ما برز من الدرعية، هو

إثارة الفتنة والبغضاء بين المسلمين، وتقسيمهم إلى فرق متناحرة يكفر بعضها البعض ويتقاتلون، وإن مما يجهله الكثير أنه يقوم بذلك لحساب الصليبيين، الذين يطمعون في الاستيلاء على أرض العرب. لقد التفتت في العام الماضي مع العريعر في العقير، مع قوم جاءوا في سفينة أندلسيين وقالوا إنهم من بلاد "مريكة" ويعانون الآن من حرب شنها عليهم الطغاة الإنجليز، وحذروا أنهم يُعدون للتوجه نحو البصرة تحت غطاء شركة الهند التجارية، فقد صنعوا قبل سنوات آلة عجيبة تحول الخيوط المغزولة إلى قماش خام، تنسجه بجودة عالية وكلفة رخيصة وتعمل بذاتها وليس باليد ويجنون منها أرباح طائلة، وهم يتظاهرون بأن غرضهم التجارة في الهدم فقط، لكنهم في الحقيقة يريدون السيطرة على البلاد، ويبحثون عن من يثير الشقاق بين الناس، حتى تضعف قوتهم ويسيطرون عليهم. ووجدوا ضالتهم في الدرعية حيث يزودون زبانتها بالمال والسلاح لبث الفتنة بين المسلمين وإضعافهم، ثم قال إن بعضكم يذهب إلى مسقط فاسألوا أهلها عما يقوم به الإنجليز. واعرّفوا من القواسم ماذا يجري عندهم؟ ساد الوجوم المكان واندھش السبعان من صدور مثل هذه الترهات من العائذي، وهو ليس "قعيشان زميقة" بل زيد بن زامل أمير جنوب العارض، الذي يخشى سطوته أهل الخرج والحوطة وحريق نعام والأفلاج، ولا يجروء كائناً من كان على معارضته، وهاهو ابن سعود يحاول وضعهم تحت نفوذه منذ أربعين سنة بلا طائل. ساد الوجوم المكان لبرهة وكاد جد والدي أن يبادر للحديث، إلا أن أحد بنو عمه أشار برغبته في ذلك، وهو رجل فطن متأنى لين الكلام، وكانوا قد اتفقوا مسبقاً أن لا يسمحوا باستدراجهم لجدال حاد نو عواقب سيئة، فقال للأمير أن مقامه معروف، وخير وسيلة لدفع أذى الصليبيين هو تكاتف المسلمين لمنع المنكرات ومكافحة العدو الغشوم. لكن الأمير لم يمهل فقاطعه بالقول نحن نعمل على ذلك مع إخواننا في الإحساء، ونحن لسنا وافدين للبلاد، بل هي أرضنا منذ زمن الجاهلية الأولى، ولا نحكم قرية صغيرة وسط التلال، بل سلطاننا يمتد على اليمامة كلها، لا يجترئ أحد على منازعتنا فيها. فرد عليه الجد بأن ذلك ليس محل جدال، ولقد سعدنا كثيراً عندما تعاهدتم مع ابن سعود قبل سنوات، ثم ساءنا أن انتقضت تلك المعاهدة. فأجاب أنه قد بذل الكثير في ذلك، لكن صاحب الدرعية وشيخه نقضا العهد الذي أمر الله بالوفاء به، فرغم الاتفاق على إيقاف خروج اللصوص وقطاع الطرق من عندهم ليكفروا الناس ويسرقوهم، إلا أنهم انتكسوا وعادوا لإرسال من يمتحن المسلمين ببدعة الربوبية، وقلنا لهم أن ليس في الإسلام تكفير على ذلك، حيث أنزل سبحانه " من رب السنوات والأرض قل الله" وقد أمرنا "اسجدوا للرحمن" وإن العيب بالأسماء والصفات من أعظم المنكرات، بخاصة إذا كان لغرض السطو على المسلمين، بادعاء أنهم لا يفهمون هذا فهم جاهليون كفار فجار. ولقد رأيت ما فعلوه في الخرج خلال السنوات

الثلاث الماضية، من قطع للشجر وحرقت البيوت وقتل الأنفس المعصومة، مما يترفع حتى الكفار عن فعله، ويدعون زوراً أن هذه هي السنة النبوية وما هو إلا عمل الزنادقة. لقد تولى تلك الأعمال الوحشية حفيد محمد بن سعود، الذي نلقبه سعود الصغير، والعرب يسمونه "أبو شوارب" حيث خالف السنة، وجلب من مصر ستة رجال يزينون شاربه ويرفعونه فوق أنفه. لم يرغب أحد في مجادلته، حيث بدا أنه قد استشاط غضبا، فأردف قائلاً إن المصيبة الكبرى قد جاءت حينما رفضوا أداء الزكاة الشرعية، حيث منعوا عمال ولي الأمر السلطان عبد الحميد (الأول وليس الثاني الذي قاتل أبي عساكره في البكيرية) من القيام به، وهو من أجمعت أمة الإسلام على مبايعته، لكن أهل وادي حنيفة فعلوا مثل مسيلمة الحنفي. الذي رفض أداء الزكاة ليثرب فرأى أبو بكر وعمر وجوب مقاتلة مانع الزكاة، وقد نصحناهم أن غل الزكاة مثل ترك الصلاة يكفر فاعله، وليس مثل الجهل بالربوبية فأبوا ذلك، لذا اعتبرناهم "الذين ينقضون عهد الله ويفسدون في الأرض لهم اللعنة ولهم سوء الدار" ولم نر في الدرعية سوى خارجي وباطني لا يراعون أصول الإسلام ويؤذون المؤمنين. استغرق الوفد في الاستياء والوجوم لبرهة، واحتاروا عن كيفية الرد على ذلك، فهم من المؤيدين لعمليات توحيد البلاد التي يقودها الأمير محمد بن سعود ثم ولده منذ عام 1160 هـ، كما يساندون حركة نبذ المنكرات التي يتولاها الشيخ محمد بن عبدالوهاب، ولا ترضيهم الكلمات الجوفاء أو الشكوك التي يثيرها البعض حول ذلك. وبينما هم في تفكير إذ انبرى أحدهم، وهو شاب كريم شجاع ساءه الاستماع إلى الكلام الرديء فهاج، وقال هذا غير صحيح ونحن نعرف الأمير والشيخ وليس ذلك فيهم، عندها احتد قريب العايذي (عفيصان) ووبخه لتكذيبه للأمير، عندها سارع الجد لإيضاح أنه لا يقصد ذلك، لكن الرجل قاطعه وزاد في خشونته بأن أخذ يسب السبعان واتهمهم بالخيانة لولي أمر بلادهم مقابل دراهم قليلة يأخذونها من الدرعية، فغلظ الكلام وردوا عليه بسب القحاطين وحبهم للبدع. سارع الأمير ابن زامل بمغادرة المجلس، حيث تبادل السبعان والقحاطين السباب والألفاظ الجارحة ثم تمادى البعض في الإساءة إلى حد البصاق، عند ذلك أقبل ثلاثة من المرافقين بعصي غليظة (عجراة) وضربوا بها الوافدين، حيث تشابكوا بالأيدي لكن عفيصان أمرهم بالكف وأخرج الجميع من المجلس. سارعوا بالذهاب لسبعان الدلم (المحمدي) الذين رفضوا الذهاب معهم، حيث إنهم في ولايته، ونصحوهم بعدم الرد على استفزازاته لهم، حيث يسيء الظن بكافة حاضرة سبيع ويتهمهم بموالاته ابن سعود. وباشروا النظر في جراحهم حيث أحد أهل الحابر في رأسه فلق طفيف نازف، وآخران في أحدهما كدمة في الكتف والثاني في الساعد، وارتفع صياح البعض بوجوب الانتقام من العايذي سريعاً، قبل أن يلمس أحد زوجته أو يأكل لحم أو يلبس عباءة. لما وصل الختالين

لقريتهم وجدوا الخبر قد طار إلى هناك، فجاءهم المواسون والشامتون كل يتحدث بما في نفسه، وهم يسترجعون الله ويسألونه الرشاد.

في الشهر التالي جاءهم رجل من الحاير متخفياً، وطلب أن يصحبه البعض شمالاً حيث يوجد رفاقه وزائر كبير من الدرعية، هناك وجدوا الأمير عبد الله بن محمد بن سعود (جد للملك عبدالعزيز) وليس معه سوى ثلاثين رجلاً بسلاح خفيف، ورهط من السبعان وبعض الخدم، وبعد تناول الطعام تحدث بإعجاب عن موقفهم مع العايزي، وأيد جهدهم للانتقام منه وأن الأمير والشيخ سيدعمون ذلك، ثم قدم لهم صرتين من الذهب وخمسة صناديق من السلاح الحديث، لكنهم رفضوا المال ولما ألح عليهم قبلوه لغرض ترميم المسجد.. وأثناء المسامرة عرضوا عليه تحويل أسلوب مقاومة المفسدين ببناء قاعدة دائمة في جنوب اليمامة لتكون مركزاً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات فذاك قد يكون خيراً من شن هجمات عشوائية غير منتظمة ثم المغادرة سريعاً، فتنبسم الأمير قائلاً إنه ما جاء إلا لهذا الغرض، ويود أن يتجول صباح الغد في هذه النواحي، ثم يلتقي مع بقية أسر البلدة. أعد آل خثلان العشاء وجاء الأمير قبل العصر، لكن معظم العائلات في البلدة لم يحضر منها إلا القليل، وأكثرهم إما منافق يريد كسب الجميع، أو جاسوس ينقل الخبر، وتبين لاحقاً أن الغالبية من غير سبعان الحريق معادين لآل محمد بن سعود، بخاصة الذين ذهبوا للدرعية قبل أكثر من خمس سنوات وعاهدوا، ولما رأوا قدوم قوات أجنبية لمساندة آل عايز نبذوا عهدهم، فهم مثل "من يعبد الله على حرف" ويخسرون الدنيا والآخرة خساراً مبيهاً. أوضح كبير آل خثلان للجميع أن هذه أول مرة يزور بلدتنا كبير من آل سعود، وسبق أن جاءنا أناس من قرابتهم آل مقرن ومن آل مرخان وآل وطبان، وعلينا أن نقوم بالواجب حياله وأن ندخل في عهد جديد معهم، لنبذ المنكرات والبدع، وتعلمون أن أسرنا منذ أكثر من ربع قرن على الوفاء بالعهد مع هذه الحركة الإصلاحية ولتوحيد البلاد، ولقد عانينا الكثير من كيد الأشرار لقاء ذلك، لكن من يتق الله يجعل له من أمره يسراً، وتعرفون أننا في هذه المنطقة الممتدة من ليلى حتى الحاير والصمان، لم نؤذي أحد من جيراننا، ولم نستولي على حقوق أحد، ولا نعتدي على من يسالمننا ولا ننقض العهود ولا نقبل الغدر والخيانة، ولا نسمح لأحد من صغارنا أن يؤذي الناس بيده أو لسانه، ولو تجرأ سفيه منا على مغازلة نساء جيراننا، أو التعدي على صبيانهم لأنزلنا به أشد عقوبة، وإنا على ما عهدتمونا منذ مئات السنين، نسأله تعالى الثبات على ذلك. ثم ختم بالقول إن وجود هذا الأمير الجليل عندكم هذا اليوم، مدعاة لأن تحرضوا من لم يحضر من عشيرتكم، لكي يأتوا في الغد ويبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه، وأن يقوموا معه قومة نصوحاً لله وحده، بدا التملل والتحكك على كثير منهم، يقبلون أبصارهم صوب مائدة

الطعام. بعد المغرب تحدث الأمير بأن الحريق مدينة حصينة، لكنها ليست ملائمة لمراقبة الطرق، كما أن مؤيدي حركة الإصلاح ليسوا غالبية أهلها، ثم جاء أحد مرافقيه، وقال إن قريبه يعمل في حلة الحريق ويحمل نباء كريه، بأن بعض "العُمان" يأترون للقبض على الأمير، ثم قرروا إرسال اثنان نحو العايزي لبيع سرية تعاونهم على ذلك، وأوصى بأن يغادر الأمير البلدة فوراً، ولما ارتج الكثير يهرولون للعودة، بدا الأمير رابط الجأش متبسماً، وقال لا عليكم فنحن نعرف الزامل وهو يعرف قدره! أما أصحابكم أهل الغدر فيبدو أنهم جنباء فنحن قلة. لم يطمئن الخثالين لذلك وهم يعرفون طبائع الخسة لدى البعض، لذا سارع عدد منهم للتحقق من الأمر جيداً، فتوجهوا نحو مكان لقائهم فأنكروا، ولما أوضحوا لهم أنهم يعرفون المرسلين للدلم والحوطة وقبضوا عليهم، لم يستمروا في الخداع وأقروا بالذنب، لذا أمروا العشرة أن يصحبوا مرافقي الأمير نحوه لينظر فيهم، ولما تمنع بعضهم أشهروا عليهم السلاح فرضخوا. لكن الوضع تبدل فوجدوا أن سبعان الحاير وأقاربهم من السهول، قد أقنعوا الأمير بعدم جدوى البقاء، ووافق على ذلك وبوشر في الإعداد للرحيل، على أن يصحبوا ستة من أهل الغدر معهم، واعترض آل خثلان على ذلك لأنهم ضامنون لسلامة الجميع، وسوف يبقى الرهائن في حوزتهم حتى يعود مندوبيهم بوصول الأمير لمأمنه. بعد قليل من توجههم في الظلمة، أشار الخثالين على أهل الحاير للذهاب لبلدتهم في أمان الله، وسيصحبون ركاب الأمير باتجاه ضرما، حيث توجد حامية كبيرة لآل سعود. عاد المرسلون للخرج بالخبية، فقد ردهم العايزي قائلاً إن عبدالله بن محمد ليس الأمير، ولسنا بحاجة له وإنما الأمير أخوه عبدالعزيز، والأمر والنهي لدى ولده سعود أبو شوارب، الذي وصفه أنه وغد شرير، كما رفض أهل الحوطة المشاركة في ذلك.

في الشهر التالي جاء نباء للحريق أن قوة ضخمة، تقارب ألف رجل خرجت من الدرعية متجهة للدلم، فصاح السبعان "اليوم يومك يا عايزي" وتوجه بعضهم نحو الخرج، للانتقام مما حل بهم من السب والضرب في مقره، لكن كثير من آل خثلان رأوا التريث، حيث لم تصلهم دعوة من ابن سعود، والزامل ما يزال على عهده معهم وهو أمير المنطقة. تبين هناك أن القوات أقل من نصف ما قيل لهم، ورغم ذلك فقد فر الجميع داخل حصن الدلم، وأطبق عليهم سعود ابن عبدالعزيز حصاراً شديداً، وباشر في تخريب منازلهم ومزارعهم الخارجة عن البلدة، ثم ظهر أن المئات من مرافقيه القادمين من سدير والوشم، هم أساتذة وعمال بناء باشروا في بناء مرقب كبير، يقع شرق العاصمة الدلم وجنوب اليمامة (القرية وليست المنطقة) وقد أسرعوا في تأسيس قواعد حجرية للسور الخارجي، ولم تمض سوى أيام حتى اكتمل بناء الحائط من الطين اللين، ثم شرعوا في بناء جدار خارجي ملاصق له من الحجر السميك، أما الأسقف فتقوم على جذوع

الأشجار الكبيرة والحصير. داخل ذلك المرقب توجد بئر ماء عذب، ومجالس وغرف ومطبخ وحظائر للركائب مع خدمات بسيطة أخرى، ثم ارتفع مبنى برج المراقبة، وبه منصات للاستطلاع وللرماية، وبجوار الحصن بيوت متباعدة مقامة من العصور السابقة، وحولها بعض الشجر وزراعات قديمة، واختير المكان بحصافة حيث يشرف على الطرق العديدة حوله، وبخاصة الدرب للأحساء وللرياض. لم يستغرق ذلك مدة طويلة، وقد وضع فيه الأمير سعود نحو مائتي محارب، جلهم من أهل المنطقة حيث البقية يرغبون عشائريهم، ووضع في قيادة تلك القلعة رجل من أقارب العايدي، الذي عاهد معه الدرعية قبل سنوات، لكنه لم ينقض العهد معه وبقي على ولائه لدعوة الإصلاح. كان الفرض على آل خثلان خمسة عشر مقاتل، يبقون في المرقب أربعين يوماً، ثم يعودون لأهلهم بعد حضور بدلاء عنهم، والمعيشة هناك ضنك على أهل الحريق، وقاسوا من الحصار والغبار، حيث الأرض جافة والرياح الشمالية تحمل أتربة الدهناء، أما الجنوبية ففيها رمال بيرين، ولولا ما يمكن شرائه من المجاورين لغدت الحياة لا تطاق، وبخاصة أن ماء البئر غارت. المرقب بني بطريقة متقنة وحرفية عالية ومحصن، له بوابتان الشمالية كبيرة وهي ليست على الحائط الخارجي، بل لها درب ضيق عرضه إثني عشر ذراعاً وعمقه مثلي ذلك، ومن يريد الاقتحام عليه أن يتعرض لوابل من النيران المهلكة، في المضيق المحاط بفتحات صغيرة للبنادق من مستويات مختلفة الارتفاع. كانت قوات ابن سعود في الحصن تتعرض للمارة بالهجوم، وتخرج أحياناً لقطع الطريق على القوافل المارة من بعيد، أما الخثالين فكان دورهم دفع الهجمات عن المبنى. كان الحديد دائماً ينصب على النهاية الوشبكة لإبن زامل، حيث بدا أنه يرتب لنفسه الهرب من الخرج شرقاً، أسوة بما جرى لحليفه دهام قبل عشر سنوات، فبناء حصن في عقر داره نذير انحسار نفوذه. قام آل خثلان بتقوية البوابة الشرقية، بوضع ردم ترابي مرتفع خلفها لمنع اقتحامها، كما أحدثوا مزاريب حجرية في أعلاها، يصب منها القطران الساخن على من يحاول تحطيم بابها الخشبي، كما بنوا سواتر حجرية على ذروة حائطها، ليتسنى لهم إطلاق بنادقهم من أعلى إذا حاول البعض الولوج عنوة. بعد أيام وردتهم أنباء من الحريق إنهم يستعدون للتوجه نحو المرقب لتدميره، بناء على أوامر من أمير الخرج، ولم يكثرثوا لها حتى جاء مثل ذلك من الحوطة، لذا أخبروا العفيصان فقال إن خبر مثله ورد من قرية اليمامة، كما أخبره أقاربه في الدلم عن ترتيبات لوصول قوة كبيرة من الأحساء، معززة بالمدافع وبقيادة العريعر لتحطيم تلك القلعة، لذا سارع بإرسال أحد معاونيه من جماعة الدرعية نحو الأمير عبدالعزيز.

بعد صلاة العشاء الآخرة حيث يتنفل بعض آل ختلان، سمعوا صوت ارتطام وجلبة وصياح، فهبوا مذعورين في الظلام نحو السطح ليس معهم سوى مصابيح ضعيفة، وجدوا رجال بسلاح خفيف قد تسلقوا جدار المرقب، الذي يرتفع أكثر من ست قامات، حيث جمعوا في الأسفل بعض جذوع الشجر، وربطوها بحبال من الليف وصعدوا عليها، إلا أن أحدهم ارتج فهوى من أعلى، أطلقوا النار من بنادقهم ذات الفتيلة فقتلوا بعض المهاجمين، وتوافد نحوهم مزيد من الرجال وساعدوا في إسقاط السلالم المبسطة، كما قبضوا على بعض المصابين بينما فر البقية. بعد التحقق من أمرهم تبين أن السأم داخلهم من انتظار العريعر، وقد نهاهم الزامل عن القيام بأي عملية غوغائية لحين إكمال ترتيباته، لكن سوء التدبير والحماقة قادتهم لذلك، وكان عدد منهم من اليمامة والحوطة والحريق. مضت عدة ليالي ثم سمعوا طرق الفؤوس والمعاول حتى الفجر، ثم تبين أن هناك حوائط قصيرة من الطين والحجر، بنيت على بعد نحو ثمانين خطوة من المرقب، ومن خلفها حفر صغيرة يختبئ فيها رجال مسلحون معهم الزاد والماء والذخيرة، يحيطون المكان إحاطة السوار بالمعصم، ويمنعون الدخول أو الخروج من المبنى، ويتناوبون على البقاء في مراصدهم في ظلمة الليل، ضاق على المحاصرين الوضع بعد نفاد الأرزاق، لكن البعض تسمعوا لهجة قريتهم، وتسللوا ليلاً نحو الخارج واشتروا من جماعتهم طعام رديء بثمن باهظ. بينما هم في حالة من الضيق وبلغوا المخمصة جوعاً، والحصار على برجهم يشتد، شاهدوا جحافل ضخمة قادمة من الشرق، وعرف البعض ببيرق بني خالد بقيادة العريعر، وعندما اقتربوا من المرقب أمطروهم بوابل من نيران بنادقهم الضعيفة، فتوقفوا بعيداً عن المرمى وأخذوا ينصبون مخيمهم، ثم جاءهم العايذي من الدلم بمزيد من قواته وسلاحه، فبلغت القلوب الحناجر وساءت الظنون، وفُقد الأمل في وصول النجدة من الدرعية. أخذوا يفكرون في المخرج من هذه الورطة الخطيرة، واقترح البعض حفر نفق يتسللوا منه لواداً في ظلام الليل، لكن تبين عدم وجود معدات حفر كافية للقيام بذلك سريعاً، لذا قام بعض المرجفين بالتسلل ليلاً، واستسلموا في ذل وهوان للعدو، عارضين إنقاذ أرواحهم لقاء تقديم المعلومات عن الداخل. عند الصباح قال جد أبي (الأكبر) أنهم لمحوا شعاع أمل، فقد تبين وجود مدفع واحد فقط، وهو من مقاس صغير قديم يشبه تلك المركبة على سفن الهند، ووضع على مسافة بعيدة عن مدى بنادق قناصة الحصن، لما شحنوه بالبارود ثم أشعلوا فتيلته، أصدر صوتاً ضعيفاً وقليل من الدخان واللهب من فوهته، حيث داخل السبطانة ضيق لا يستوعب الكثير، أما القذيفة "القنبرة" فقد ارتطمت على هون بالحائط الحجري، وتدرجت بقاياها على الأرض كأنها كرة من العهن المنفوش، فهلل أهل الحصن وكبروا وحمدوا الله، أن دحر عدوهم بلا حول منهم ولا قوة. حروب العرب على بعضها آنذاك شبهها والدي

"بالهجولة" والعشوائية، فالتصرفات مرتجلة والقرارات مصرقة! فبعد أيام جمع قائم مقام والي الترك رجاله، واتجه شرقاً نحو قاعدته في المبرز، بينما عاد القحطاني إلى قصره المنيع في الدلم، ولم يدرك السبعان سبب ذلك إلا عندما وردهم أن الأمير غادر الدرعية، متجهاً نحوهم في عدة كتائب من المجاهدين، وبقوا في حصنهم يتضورون جوعاً في انتظار فرج الله الذي لا يخيب سائله. لما أقبلت طلائع قوات عبدالعزيز، انفضت سرازم المحاصرين للمرقب، وتمكن المدافعون من الخروج، والتأهب لإكمال المنازلة. ولما وصل ابن سعود لمحاصرة الدلم تحقق من غدر بعض البلدات وتجرؤهم على مهاجمة حامية حصنه، لذا أوفد ابنه سعود للحوطة وأخاه عبدالله للحريق وابن عمه مشاري للقيام، وكلفهم بتأديب البغاة من أهلها ومعاقبة من ثبتت خيانتها. سارع آل خثلان نحو بلدتهم لتخفيف النكال عن أهلهم وجيرانهم، وعند وصول الأمير عبدالله بن محمد بن سعود، كان مغتاضاً من إقدام البعض على العمل الرديء، ومعه أسماء نحو مائة ممن شاركوا في القتال ضد آل سعود، وجليبوا له في مخيم أقيم جنوب شرق الحريق على ضفة وادي الباطن، حيث وبخهم وأقاربهم بشدة معلناً عزمه قطع رؤوسهم. قبلت نفسه السمحة شفاعاة آل خثلان في البعض، كما تشفع لديه قوم من الهزازنة والقحاطين (لام الفضول) والأشراف، وقبل ذلك حيث ألقى عن عدد منهم، مع فرض غرامة مالية أو مصادرة الخيل والإبل والأغنام من آخرين، وتخلص ممن ثبت عليه الغدر والخيانة. ورغم الأسى الشديد في البلدة لما جرى، فقد ارتعب القوم مما حدث لأهل الحوطة من تنكيل شديد، وسفك دماء الكثير وهدم المباني وقطع الأشجار المثمرة .